الدار المتوسطية للنشر
MEDITERRANEAN PUBLISHER

المنصف ونّاس

الشّخصيّة الليبية

ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة



المنصف ونّاس

حسن يوسف الحويشي

الشخصيّة الليبية

ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة

الدار المتوسطية للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : الشّخصية الليبية

المؤلف : المنصف ونّاس

مدير النشر : عماد العزّالي

تصميم الكتاب والغلاف : نجلاء العياري

الترقيم الدولي للكتاب : 1- 15 - 864 - 9938 - 978

الطبعة الأولى: 2014 م - 1435 هـ

5 شارع شطرانة 2073 برج الوزير أريانة

الهاتف : 880 698 70 216-الفاكس : 633 698 70 216

الموقع الإلكتروني: www.mediterraneanpub.com

البريد الإلكتروني : medi.publishers@gnet.tn

الفايسبوك : فضاء القارئ

الدار المتوسطية للنشر

MEDITERRANEAN PUBLISHER

التقديم العام

إنّ الاهتمام بمبحث الشّخصيّة القاعدية اهتمام بحثي لطالما حيّرنا عمليّا وسكن مشاغلنا العلمية والشخصيّة على امتداد السنوات الأخيرة. فبعد سنوات من القراءات العميقة ومن التأمّل، توصّلنا إلى بناء فرضيّة مفادها أنّ مفهوم الشخصيّة القاعدية أو الأساسيّة يمكن أن يكون مدخلا علميا لتحليل عديد الظّواهر وفهمها وفي مقدمتها الأزمات العميقة التي تمرّ بها الشعوب وتعيشها المجتمعات. من الأكيد أنّه ثمّة اختلافات حول تعريف المفهوم وكيفية استعماله بل من المؤكّد أنه يُوجَدُ من يشكّك في جدواه العلمية والعملية ويحاول أن يضع المدرسة الثقافوية برمّتها موضع مساءلة.

ولكن على الرّغم من اختلاف القراءات والمقاربات، فإنّ مفهوم الشخصيّة القاعديّة بحكم تنوّع الشّرائح العلميّة المكوّنة له يمكن أن يكون مدخلا لقراءة جديدة تنير زوايا معتّمة لم يتمّ التطرّق إليها ويمكن أن يُساعد على فهم أجزاء مهمّة من ديناميكية المجتمع. كما يمكن أن يكون هذا المفهوم مدخلا لفهم تطوّر البنيات الذهنيّة في صلب المجتمع وكيفيّة ترجمتها في روابط وسلوكيات اجتماعية وثقافيّة. فالظّاهرة الاجتماعية الواحدة يمكن أن تُقْرأَ قراءات متباينة ومتعدّدة في الآن نفسه. ويمكن أن يكون هذا المفهوم مدخلا لإحدى هذه القراءات بحكم ثرائه العلمي والعملي.

فلا يجب أن ننسى، في هذا السياق بالذّات، أنّ الشخصيّة القاعديّة يمكن أن تعرّف على أنّها محصّلة تراكمات تاريخيّة واقتصاديّة وسياسية واجتماعيّة وثقافيّة تمتدّ طيلة آلاف السنين طبعت الإنسان اللّيبي بطابع خاصّ وأكسبته صفات معيّنة

وتحكّمت إلى حدّ ما في تمثّلاته للحياة وسلوكياته وخاصّة في علاقاته الاجتماعية. فيكفي أن ننظر في صيرورة المجتمع اللّيبي، قديما وحديثا، حتّى نرى هذا التنوّع العميق وهذا التعدّد في هويّة الأقوام والحضارات التي تعاقبت على أرض ليبيا وطبعتها، جزئيا أو كليّا، بخصائص معيّنة وأكسبتها صفات عديدة لا يمكن إلغاؤها بسهولة ولا إنكارها لسبب أو آخر. فقد تعاقب على أرض ليبيا الفينيقيون والرومان والوندال والإغريق والبيزنطيون والعرب المسلمون والهلاليون والأغالبة والحفصيون والعثمانيون والأنجليز والإيطاليون والقرمونلليون وطبعوا سكان هذه الأرض وساهموا، جزئيّا أو كليّا، كثيرا أو قليلا، في نحت الشخصيّة القاعديّة اللّيبيّة وفي تشكيل بنيتها الاجتماعية والثقافيّة والذهنيّة.

ولذلك يبدو لنا ضروريا، من الناحية النظريّة والعلميّة، أن نستحضر هذا التراكم التاريخي والثقافي والحضاري وخاصّة الإثني كي يكون أداة

معرفيّة مساعدة على فهم خصائص الواقع الرّاهن من جهة وطبيعة الصيرورة التاريخيّة التي تحكّمت في مسار المجتمع اللّيبي في العقود الستّة الأخيرة من جهة أخرى.

كما يمكن أن يكـون هذا الـمفهوم مدخلا علميا لتشخيص مكامن القوّة في صيرورة المجتمع اللّيبي، وكذلك لتشخيص مواطن التوتّر والإخفاق ومجالات الوهن والضعف. فقد تعوّدنا على أن تكون عملية الفهم أحادية البعد وكذلك الشأن بالنسبة إلى المتغيّر التفسيري وأن يكون البعد السياسي هو المتحكّم الوحيد في مفاصل عمليّة الفهم، ولكن الظواهر لا يمكن أن تكون مجال تفسير واحد.

فالأزمة العميقة التي عاشها المجتمع اللّيبي، بكل جوارحه، في الفترة الفاصلة بين فيفري وأكتوبر 2011 أفضت عمليا على الرّغم من تباين القراءات، إلى تفكيك توازن المجتمع وإلى تدمير البنيات الاجتماعية والقبلية وخاصّة إلى استحضار تاريخ

مسكون بالتوتّرات والخلافات القبلية والجهويّة وإلى إعادة إحياء جغرافيا الأحقاد والصّراعات بين الفئات والجهات. فالمفارقة الأنثروبولوجية هي أنّ هذه الأزمة أعادت إنتاج ذاكرة دامية وتاريخ مأزوم وتوظيفهما في إدارة الصّراع، في حين أنّنا اعتقدنا، لعقود خلت، أنّ هذا التاريخ المتوتّر انصهر تماما في النّسيج الذّهني والثقافي والاجتماعي والقبلي للمجتمع اللّيبي الأمر الذي يفسّر -ولو جزئيّا- مستويات العنف السائدة حاليّا.

إنّ مثل هذا الاستنتاج الأوّلي القابل للإثبات والدحض يشير إلى أنّ هذه الأزمة هي في مضمونها العميق تاريخيّة وثقافيّة. ومن أجل فهم هذه الأزمة، نطمح إلى إيجاد زاوية هجوم علمي جديد تساعد على تسليط الضّوء على أبعاد غير مكتشفة بعد. وقد ارتأينا أن نجرّب مفهوم الشخصيّة كأداة من أدوات التفسير والفهم. فإلي أيّ مدى يمكن أن يكون هذا المفهوم ناجعا في فهم مجريات الأمور الرّاهنة ؟

ولأنّ الواقع المجتمعي صعب وشائك ولأنّ مفهوم الشخصيّة القاعديّة قابل للنقد، فقد فضّلنا أن تعتمد مقاربتنا أسلوب التّلميح وليس التصريح والمحاولة وليس الحسم حتّى نترك هامشا للخطإ والتّراجع العلمي وحتّى نتجنّب المواقف الحاسمة المناقضة تماما لروح العلم. فالكتابة فعل لا متناه لا يمكن الإدّعاء بحسمه وحصره ؛ وهي لا تولد مكتملة، وإنّما تتراكم وتتطوّر بتطوّر التاريخ.

ولكن على الرّغم من كثافة هذه المحاذير الفكريّة والمنهجيّة، فإنّ التحلّي بالشجاعة العلميّة أمر ضروري حتّى ننجز هذه المغامرة البحثيّة.

إنّه لا يختلف اثنان في أن مبحث الشخصيّة القاعديّة يحتاج مخابر بحث بحالها، ومع ذلك قمنا بهذه التجربة حتّى نستحثّ الهمم ونحرّك السواكن ونرمي أفكارا في هذه البركة العربيّة الرّاكدة عساها تخلق بيئة للحوار. ولا يفوتنا أن نشكر الأساتذة : موسى الأشخم (باحث في الإقتصاد) الذي أمدّنا بدراسته

المرقونة حول الغلبة التي أفادتنا ببعض المعلومات دون أن تتحكّم في توجّه البحث، ومستور رحيم (أستاذ علم الاجتماع في جامعة البيضاء) ومصطفى الفيتوري (باحث في العلوم السياسيّة) وعبد السلام لطيف عمارة (أستاذ القانون في جامعة طرابلس) وطارق بلعج (أستاذ علم النفس بجامعة تونس) ومعز السالمي (باحث) لكلّ ملاحظاتهم المثرية للبحث وكمال السحباني على كلّ ملاحظاته اللّغويّة.

المؤلّف

تونس في 27 ديسمبر 2013

ابْوَادِي لبّاسِينْ جْرُودْ
ايْهِبُوا أليا صَار البَارُودْ

هتاف سياسي ساد العقود الثلاثة الأخيرة وتحوّل إلى شعار المرحلة

أَرْحَمْ بُويْ خَلاّنِي هْوَاوِي
كِيفْ النّجْمْ فِي قلب السْمَا

الشاعر عبد المطلب الجماعي

تـوطـئة

إنّ مبحث الشخصيّة القاعديّة ليس مبحثا سهلا في القراءة والفهم وإنّما هو، على النقيض من ذلك، مرهقٌ وصعبُ المرَاس علميا. فالإنتاج العلمي حول المفهوم Basic personality هو بالأساس أنجلوسكوني. ولا تكاد توجد أدبيات فرنسية إلاّ فيما ندر الأمر الذي يطرح مشكلة توطين المفهوم في بيئة غير غربية وخاصّة إذا ما تعلق الأمر بالمجتمع اللّيبي الذي يتمتّع بثقل تاريخي وقبلي معين يتّسم بالفرادة والخصوصية وبمجموعة من الخصوصيّات الثقافيّة والذهنية والاجتماعيّة التي لا يمكن للباحث تجاهلها.

ومن هنا فإنّ الصعوبة العلميّة تتأتّى من كيفيّة تطبيق المفهوم ميدانيّا وإثبات جدواه الإجرائية.

وعلى الرّغم من هذه الصّعوبات العلميّة والميدانيّة، سنحاول أن ننجز هذه الدّراسة دون الادّعاء بالوصول إلى نتائج يقينية وحاسمة. فبغضّ النّظر عن النتائج المرتقبة، فإنّ كلّ طموحنا يتّجه إلى تشجيع الحوار وخلق حالة من الحيرة الفكريّة قصد مزيد الفهم. فالمتأمّل في معمار هذا الكتاب يجد أنّه أُنْجِز بغاية خلق فرص للحوار. وهو عهد كنّا قطعناه على أنفسنا منذ التقديم العام.

سؤال المنطلق

إلى أيّ حدّ يمكن تطبيق مفهوم الشخصيّة القاعديّة باعتباره مدخلا من المداخل العلميّة الممكنة لفهم المجتمع اللّيبي ؟ وما هي الخصائص البارزة المميّزة للشخصيّة القاعديّة ؟

هذان السّؤالان يشجّعان على الدّخول إلى مجاهل هذا البحث ـ على صعوبته ـ ويدفعان باتجاه «مسالك» بحثية عويصة نرجو أن نتمكّن من السيطرة عليها.

ولعلّ هذا ما يشجّعنا على بناء فرضيتين متكاملتين :

• لقد تغيّرت ليبيا اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وديموغرافيا تغيّرا ملحوظا قياسا بالستينيات من القرن العشرين وتحضّرت البلاد بفعل الريع النفطي وخاصة الاستثمار الاقتصادي بنسبة مرتفعة (حوالي 70 %) ؛ وهي واحدة من أهم نسب التحضّر في أفريقيا والعالم العربي. كما اكتظت بالمدن والمراكز العمرانيّة التي عمّرت جزءًا واسعا من الشريط الساحلي، ولكن القبيلة بقيت قويّة ولاتزال خصائصها الذهنيّة والثقافيّة مؤثّرة في المعيش اليومي اللّيبي وخاصّة في العلاقات والسلوك وفي البنيات الذهنيّة على حدّ تعبير عالم الاجتماع لوسيان غولدمان.

• لا يمكن فهم جذور الانفجار الشعبي الذي حصل سنة 2011 اعتمادا على اعتبارات سياسية محض، وإنّما تتوجّب العودة إلى خصائص الشخصيّة

الأساسيّة أو القاعدية التي تتحكّم في السلوك العام. فلكلّ شعب من الشعوب شخصيّته القاعديّة التي تميّزه عن بقيّة الشعوب الأخرى وتمنحه خصوصيّته النفسيّة والثقافية وتوجّه سلوكياته وعلاقاته اليوميّة صلب المجتمع.

المنهجية

اعتمدنا في هذه المحاولة البحثيّة على الملاحظة الأنتروبولوجيّة[1] التي سمحت لنا، على امتداد خمس وعشرين سنه أن نتأمّل ديناميكية المجتمع و نلاحظ سلوكيات مختلف الفاعلين الاجتماعيين داخلة وأن نسجّل المعلومات ونراكم المعطيات وأن نصل إلى بعض مستويات الفهم انطلاقا من فكرة أساسيّة وهي أن التحليل الكامل والمتكامل للظواهر لا يكاد يوجد في العلوم الإنسانية. فالملاحظة الأنتروبولوجية

1- Dan Sperber, *Le savoir des anthropologues*, Paris, Dunod, 1982, p. 87. Cf. aussi, André Piette, *Ethnographie de l'action, l'observation des détails,* Paris, Métaillé, 1996.

تتلاءم، غالبا، مع المجتمعات ذات التركيبة الخاصّة التي يصعب فيها الوصول إلى المعلومات عن طريق الاستمارة جرّاء المراقبة والحذر لاعتبارات سياسية وأمنية معلومة من قبل الجميع.

فالملاحظة ليست تقنيّة منهجيّة محدودة في الزمان والمكان. ولأنّها مرنة يمكن أن تمارس في أسبوع أو في عام أو حتّى أكثر من ذلك. ولكن نتائج الملاحظة غالبا ما تكون تمثيلية ودقيقة، بدليل أنّها سمحت لنا بمراكمة كلّ هذه الاستنتاجات.

كما اعتمدنا أيضا على المقابلات التي يظهر بعضها بشكل مباشر في حين يتخفّى بعضها الآخر في صلب النصّ. فالمقابلة تقنية منهجية من أشدّ المنهجيات صرامة، لأنّها تتطلّب عديد التفاصيل عند تطبيقها على الرّغم من أنّ بعض المستجوبين أصرّوا تماما على ذكر أسمائهم مختصرة لاعتبارات سياسية وشخصيّة في مثل هذه المرحلة الصعبة.

ومن أجل مزيد التدقيق، نشير إلى أن منهجية هذه الدراسة اعتمدت أيضا على تحليل مضمون[2] عيّنة بسيطة من الشعر الشعبي اللّيبي، ولكنّها ذات تمثيلية نسبيّة انطلاقا من مبدأ أساسي وهو أنّ الشعر الشّعبي أقرب المتون الإبداعية إلى الذهنيّة اللّيبية. كما يمكن اعتباره مدخلا مهمّا لفهم تركيبة التاريخ الاجتماعي والقبلي في ليبيا كما يشهد المختصون بذلك[3].

تعريفات مفهوم الشخصية القاعدية ومعانيها التّخومية

تعنى الشخصيّة القاعديّة إجمالا حالة متوسّطة من التّماثل النفسي والثقافي والاجتماعي التي يتمّ التعبير عنها من خلال سلوكيات وعلاقات اجتماعيّة

2 - Alain Blanchet, Rodolphe Ghiglione, *L'analyse de contenu et contenus d'analyses*, Paris, Dunod, 1991, 151p.

3 - عبارة وردت في مقابلة مع علي الساحلي مدير الديوان الملكي ووزير خارجية ليبيا وأستاذ الأدب الشعبي بجامعة قاريونس، بتاريخ 1999/07/28 بمدينة بنغازي.

وإنسانيّة شبه متماثلة وشبه مشتركة على الرّغم من وجود تباينات واختلافات[4]. فهي كذلك بنية نفسيّة واجتماعيّة مميّزة وخاصّة بأفراد هذا المجتمع أو ذاك وبهذه المجموعة أو تلك، ذلك أنّ المفهوم يشمل المجموعات الكبيرة والصغيرة على حدّ السّواء تترجمها في معيش يومي مشترك.[5] وبناء على ما تقدّم، فإنّه من الضروري العمل على رفع بعض الالتباسات والتنبيه إلى بعض المحاذير التي قد تحيط به، قصديّا أو لا قصديا.

وتتمثّل أولى مستويات الالتباس في الجهاز المفاهيمي المرافق لمفهوم الشخصيّة القاعديّة أو الأساسيّة. فمن الباحثين من يستعمل مفهوم الشخصيّة القومية أو الوطنية مؤكّدا وجود اختلافات بطبيعة الحال في مستوى التعريفات والتدقيقات في المعاني. وثمّة

4- Abram Kardiner, *The concept of basic personality,structure as an operational tool in the social sciences*, New York, 1945.

5- Mikel Dufrenne, *La personnalité de base. Un concept sociologique*, Paris, P.U.F., 1953, p. 8.

أيضا من يتحدّث عن شخصيّة المجتمع أو شخصيّة المجموعة المتعايشة داخل مجال جغرافي وتُرابي واجتماعي واحد.

ولكن ثمّة من يتحدّث عن شخصيّة الإنسان أو الفرد. وبناء على كلّ هذا، يجد الباحثون أنفسهم أمام جهاز مفاهيمي متعدّد التعريفات ويتّسم باللّبس والغموض. ولعلّ ذلك ما يشجّعنا على الانحياز، علميّا، لمفهوم الشخصية القاعدية أو الأساسيّة[6] باعتبارها محصّلة كلّ التراكمات التاريخيّة والاجتماعية والإثنيّة السابقة على الرّغم من أنّ ذاكرة الأفراد تتعامل مع كلّ هذه التراكمات تعاملا انتقائيّا، فتختار ما تريد وتستبعد ما تريد وتقرّب وتقصي وفق منطق خاصّ. ولكن الشخصيّة القاعديّة تحتفظ بجزء من هذه التراكمات التاريخيّة والحضاريّة وتتأثّر بها في توجيه

6- Pervin,John, *La personnalité : de la théorie à la recherche*, adoptation française de Louise Nadeam Didier Acier et Dave Miranda, de Boeck, 2005, 580 pages.

العلاقات والسلوكيات الاجتماعية. فقد تكون هذه المرحلة التاريخيّة أو تلك أكثر تأثيرا من غيرها، ولكن بقيّة المراحل تحافظ على الحدّ الأدنى من التأثير في تشكّل الشخصيّة القاعديّة وفي توجيهها.

وهكذا نصل إذن إلى المستوى الثاني من اللّبس والمتمثّل في المعنى. فالشخصيّة القاعديّة ليست حتميّة ولا تحديدية أي بمعنى أنّها مُلْزِمَة لكلّ الأفراد. فهي نسبيّة لأنّها تعبّر عن حالة شبه سائدة وشبه عامّة، ولكنّها ليست بحال من الأحوال شخصيّة شمولية أي ملزمة لكلّ أفراد المجتمع دون استثناء. كما تتميّز الشخصيّة القاعديّة بصفتي التغيّر والتّحرّك لأنّها ليست سكونيّة كما يعتقد بعض الباحثين بدليل هذا التأثّر والتأثير المتبادل بينها وبين المجتمع المحيط بها ؛ فهي قادرة كذلك على التغيّر والحركة.

فالشخصيّة القاعديّة ليست منبثّة عن المجتمع، وهي تتأثّر به وتؤثّر فيه إن صراحة وإن ضمنا.

فثمّة مستويات عديدة من التداخل ومن التأثّر بينهما، ذلك أنّ الشخصيّة ليست منفردة بذاتها وليست منعزلة عن سياقها الحضاري. فالشخصيّة القاعديّة في تونس وليبيا ومصر هي جزء أساسي من الشخصيّة العربيّة الإسلاميّة على الرّغم من توفّرها على عديد الخصائص والخصوصيّات «القطريّة» والمحليّة. فالشخصيّة اللّيبيّة على الرّغم من ثراء خصوصياتها وتنوّع تراكماتها التاريخيّة والاثنية تتفاعل جدليّا مع الشخصيّة العربية دون أن يعني ذلك تجزئة وانفصالا عن المحيط القريب والبعيد. ولذلك فما يمكن استنتاجه هو أنّ الشخصيّة القاعديّة حالة ديناميكيّة تجمع بين الوطني والقطري والشّامل والخصوصي تدليلا على تعدّد الشرائح المكوّنة لها وعلى ثراء مخزونها التاريخي والثقافي والاجتماعي والاثني.

تعريف مفهوم البداوة

غالبا ما يتمّ تعريف البداوة على أنّها نظام اجتماعي ومعيشي ينبني على ممارسات عدم الاستقرار والترحّل بحثا عن الكلأ والماء والارتباط بـ«روح الصحراء» في إطار اقتصاد هو بالأساس رعويّ. ولهذا يحرص النّظام الاجتماعي البدوي على استثمار خبراته من أجل ديمومة التشكيلة الاجتماعية الرعوية بكل مقوّماتها ومرتكزاتها. كما تستند البداوة إلى نظام قيمي وأخلاقي وسلوكي محدّد، الأمر الذي يؤكّد أنّها ليست اقتصادا ومعاشا فقط مثلما يعرّفها ابن خلدون. فالبداوة هي أيضا نظام متماسك من الأعراف والتقاليد والممارسات التراتبيّة ومن التبجيل لشيوخ العشيرة باعتبارهم حماة الديار وحرّاس رأس المال الرّمزي، على حدّ تعبير بورديو، والمدافعين الأشدّاء عن ثقافة البداوة. كما يكون مفيدا أن نشير إلى أنّ البداوة على الرّغم من أنّها تفضّل الترحال وعدم الاستقرار وعدم المكوث في موطن سكنى واحد، إلاّ

أنّها تتوفّر على نظام قضائي واضح المعالم ومحدّد القوانين والممارسات لأنه يرتكز على العرف السائد والدّين. ولكن البداوة ترتكز أيضا على منظومة ثقافية سالبة تحقّر العمل والجهد والنشاط الحرفي واليدوي وتترفّع عنهما، الأمر الذي يؤكّد مشروعيّة تعريفنا من أنّ البداوة أعمق من أن تكون مجرّد نظام اقتصادي ومعيشي كما اختزلها ابن خلدون في كتابه «المقدّمة» ؛ إنّها أساسا نظام ذهني وثقافي ورمزي وقيمي شديد التأثير في سلوكيات الأفراد. ولعلّ ذلك ما نسمّيه بالبداوة الذهنيّة ؛ وهي الأدوم والأكثر فاعليّة في بنية المجتمع ومعيش الأفراد والأكثر إلزاما لسلوكهم.

فالبداوة الذهنيّة التي هي المفهوم المركزي في هذا البحث تنبني على نظام من القيم والتمثّلات التي تمتدّ لتشمل كلّ مجالات الحياة ومناشط الوجود الإنساني.

فيمكن أن تنتفي شروط وجودها الماديّة والاقتصاديّة والمعيشيّة، ولكنّها يمكن أن تستمرّ مؤثّرة في الواقع

اليومي للأفراد لأنّها منتجة لمنظومة التمثّلات الثقافيّة. و لأن البداوة الذهنيّة ثقافة قبل أيّ شيء آخر ؛ فهي لا تندثر حتّى وإن اندثرت قاعدتها الماديّة والإنتاجية. ولعلّ هذا ما يجعل منها حالة ثقافيّة غير متأثّرة ضرورة بالواقع الاقتصادي والمادّي. فهذه الظاهرة الثقافيّة هي واحدة من الظواهر التي تدلّل على أنّ الواقع المادّي والإنتاجي لا ينعكس بالضرورة بشكل آلي وحتمي في التعبيرات الثقافيّة والذهنيّة بل ثمّة نوع من الاستقلاليّة ومن القدرة على ضمان المسافة الفاصلة والعازلة بين المستويات المختلفة.

وليس أدلّ على ذلك من أنّ البداوة الذهنيّة تتعايش في ليبيا مع عديد مظاهر الاقتصاد الرّأسمالي مثل الريع البترولي والسّوق والاستهلاك المفرط بالإضافة إلى المضاربات العقاريّة والخدمات. فالبنيات الذهنيّة والثقافيّة تتّسم بديمومة وتأثير زمنيين لا يمكن إخضاعهما إلى تحقيب تاريخي دقيق، ذلك أنّه لا يمكن لأيّ باحث أن يضبط بشكل دقيق متى تبرز

البداوة الذهنيّة ومتى تمحّي مثلما هو شأن أغلب الظّواهر الاجتماعية.

وللتدليل على قدرة هذه البداوة على أن «تصمد» على الرّغم من اندثار القاعدة المادية والمرتكز الاقتصادي، نشير إلى أنّها قاومت على طريقتها ما سمّي بالمشروع الثوري للنّظام السابق(1969-2011) الذي أنفق بسخاء من أجل تكوين قوى ثورية مقتنعة بهذا المشروع وخاصّة في منطقة برقة[7] والجنوب اللّيبي. ولعلّ هذا ما اضطرّه إلى إدماج هذه البداوة في مشروعه والاستفادة منها في عملية الوصول إلى الذهنيّة العامّة وتعبئه أبناء القبائل من أجل ضمان الولاء من جهة وإكساب النّظام مقبوليّة سياسية حتّى وإن لم يكن مقتنعا بها اقتناعا كلّيا لأنّه يؤمن بـ«الشرعية الثورية» من جهة أخرى.

7 - مقابلة مع (ع.ع.ق.) في تونس في04 / 7 /2011.

ولعلّ ذلك ما يدعونا إلى التفكير بعمق بهذا التكامل الاستثنائي بين البداوة والأيديولوجيا الثّوريّة. ومن أجل إنجاز ذلك نعتزم في قادم السنوات، إن سمحت لنا ميزانية الوقت والقدرة العلميّة، أن ننجز دراسة حول تاريخيّة الذهنيّة البدويّة. فهي مفتاح نظري مهمّ لفهم أجزاء من ديناميكيّة المجتمع اللّيبي، قديما وراهنا.

خصائص الشخصية اللّيبية الكبرى

لمزيد توضيح هذه المسألة، نشير إلى فكرة عامة تكون منطلقا للتحليل. ثمّة من يعتبر أنّ التغيير السياسي في الفاتح من سبتمبر هو «غزوة هلاليّة ثانية» من حيث نتائجها المجتمعيّة والثقافيّة. فلقد انطلقت هذه الثورة من فكرة أساسيّة كانت شديدة التّأثير في صيرورة المجتمع اللّيبي مؤدّاها أن البدو هم أكثر قابلية للثورة وأكثر ثوريّة قياسا بالحضر[8]

8- وقد شكّلت هذه الفكرة منطلقا خاطئا أدّى إلى نتائج صعبة أثرت في المعيش اليومي لليبيين وولّدت معاناة دائمة.

الذين جرى اتّهامهم بـ«البرود الثّوري» وبالطّلْينة أي الولاء لإيطاليا ودعمها عسكريا بواسطة جيش «الباندا» La Banda[9]، أو ما يعرف بالمحلاّت، ممّا ترتّب عنه إقصاءٌ في مستويات المشاركة السّياسية. ولعل أشهر «باندا» هي باندة عاكف التي اقتلعت سكّان الجبل الغربي من جذورهم وساعدت الإيطاليين على قمعهم.

وبمقتضى هذا المبدأ السياسي القابل للنقاش، تاريخيا واجتماعيا، سيطر على مختلف مفاصل الدّولة اللّيبيّة أشخاص من أصول بدويّة غالبا ما تعاملوا مع الإدارة على أنّها غنيمة، فهيمن الآداء الارتجالي بشكل ملحوظ لأنّ الشخصيّة القاعديّة البدويّة هي، غالبا، ميالة إلى الارتجاليّة Improvising personality؛ ولا تهتمّ بالنّظر بروية في المقترحات ولا بالبحث في البدائل الممكنة؛ فهي تفضّل المضيّ قدما في اختيار واحد

9 - من اللاّفت للانتباه أن يوسف خريبيشه قائد جيش الباندا في المنطقة الغربية وربّما في كامل ليبيا وعنوان الواقعية القبليّة لم يدرس بما فيه الكفاية ولا توجد معطيات كافية حوله، مع أنّه المفتاح النظري لفهم جزء من التاريخ القبلي اللّيبي.

دون أيّة مراجعة ؛ وتلك هي خاصيتها الأولى. ولمزيد توضيح هذه الفكرة وتبيان خصائص تطبيقها، نشير بشكل انتقائي إلى أنّ مبدأ «الثورة الإداريّة» الذي ورد ضمن مبادئ «الثورة الثقافيّة» الخمسة في خطاب زوارة في 15 أفريل 1973 تمّ تأويله وتطبيقه على أنّه يعني البدونة والغنيمة لتملك الغلبة الضروريّة. فالسيطرة على مفاصل الإدارة وعلى مصادر المال العام لا يعنيان فقط الإثراء الشخصي - فذلك من تحصيل الحاصل- وإنّما امتلاك موارد الغنيمة والقوة وصولا إلى السيطرة والغلبة القبليّة؛ وهما عنصران أساسيّان من عناصر الشخصيّة الأساسيّة البدوية[10]. وبناء على ذلك، فالارتجالية تسمح بخلط الوضعيات والوصول إلى الغنيمة ونيلها دون مراقبة.

وقد ازداد الواقع صعوبة جرّاء تجربة المؤتمرات الشعبية التي كانت مكوّنةً في الغالب الأعم من البدو

10 - انظر بخاصة جميل هلال، دراسة في الواقع اللّيبي، طرابلس، مكتبة الفكر، 1969، ص 111 – 131؛ انظر أيضا : عبد الجليل الطاهر، المجتمع اللّيبي، دراسات اجتماعيّة وأنثروبولوجية، المكتبة العصريّة، بيروت، 1969، ص82 – 110.

الذين أوَّلُوا «الثورة الإدارية» على أنّها تعني الارتجال وعدم تطبيق اللّوائح والقوانين وعدم الاستخدام الأمثل للموارد وعدم توقير الإدارة. كما أوجدت هذه الممارسة الارتجالية ظروفا ملائمة لنهب المال العام وتوظيفه خدمة للقبائل والمصالح الذّاتيّة ؛ فحصل، بفعل ذلك، تطابقٌ بين الارتجال والغنيمة من جهة والسّلطة والغلبة من جهة أخرى.

إنّ البدوي لا ينظر إلى الظواهر والأشياء وفق معناها الأوّلي والظاهر، وإنّما وفق ما يمكن أن تفضي إليه من إمداد بسبل القوّة ومن موارد الوجاهة وإمكانيّات التمكّن من الآخر وغلبته أخذا في الاعتبار أنّ الغلبة بنية ذهنيّة وثقافيّة أساسيّة وركن مكين في تركيبة الشخصيّة القاعديّة البدويّة؛ وهي أيضا مدخل مهم لفهم السلوكيات العامّة السائدة في المجتمع.

فالغلبة تداوي الجروح وتسمح بالذّهاب إلى أقصى مدى في الثّأر وتصفية الحساب وعلاج الجرح الرّمزي

أخذا في الاعتبار ما تتميّز به الشخصيّة القبليّة من تمركز حول الذّات[11] ونرجسيّة الأمر الذي يجعل الهزيمة أمرا مقيتا بالنسبة إليها.

ولذلك لا يكاد يوجد بلسم للجروح النرجسية سوى بلسم الغلبة الثأرية ؛ فمداواة الهزيمة تقتضي، عمليّا، هزيمة الآخر خاصّة إذا كان خصما قبليا.

لأنّ القبيلة التي لا تملك عصبيةً وعُزْوةً وسطوة على القبائل الأخرى لا يقرأ لها أيّ حساب ويمكن أن تتعرّض للإهانة والإقصاء وحتّى الغزو الخارجي من قبل قبائل أخرى مثلما حدث في عديد الأمثلة التاريخيّة لأنّها لا تملك عناصر القوّة. فكانت النتيجة المتوقّعة أنّ فقد مبدأ «الثورة الإدارية» الذي ورد في

11- ولعل هذا ما يفسّر، ولو جزئيّا سيطرة نعوت مثل العظمى والكبرى والعليا والنهائية...

خطاب زوارة[12] أي مدلول إيجابي وأنتج سلوكيات عديدة ذات تركيبة بدويّة أفضت إلى حالة إحباط مجتمعي تنامى على امتداد عقود من الزّمن[13]. وبذلك أفضت البدونة المفروضة إلى نتائج مجتمعيّة عديدة يتوجّب العمل بروية وتعمّق من أجل فهم أبعادها وخاصة نتائجها التي تقيّم على أنّها غير إيجابيّة :

• التنصّل من مسؤوليّة تحديث المجتمع اللّيبي اقتصاديا واجتماعيا وتطوير حياته السياسيّة

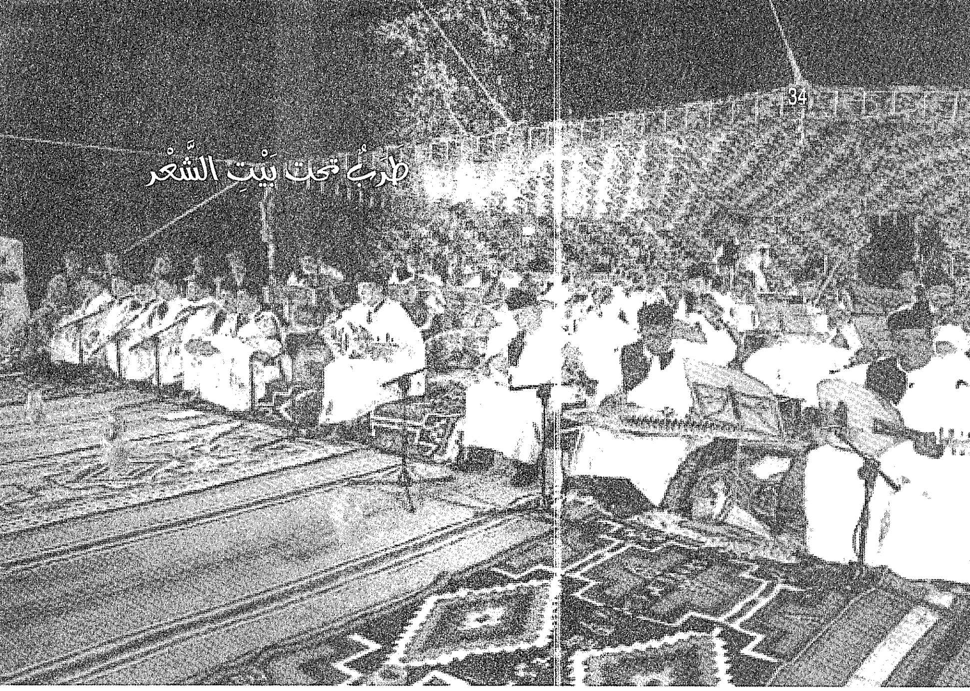
12- إنّ خطاب زوارة الذي تضمّن نقاطا خمسة أساسيّة خضع إلى تأويلات متعدّدة، فقد تمّ تأويله على أنّه خطاب موجّه إلى أمازيغ ليبيا باعتبار أنّ زوارة إضافة إلى الجبل الغربي هي معقل أساسي من معاقل بربر ليبيا. كما ثمّة من يعتبر هذا الخطاب تعبيرا عن الصّراع القائم داخل العسكريين المتحكمين في البلاد، في حين أنّ القراءة الثالثة تؤكّد على أنّ الخطاب هو التفاف على مطلب تسليم السلطة للمدنيين الذي كان مطروحا بجديّة آنذاك. ولكننا نعتقد أنّ الثورة الثقافية فتحت الباب على مصراعيه للشّخصنة وأدت إلى «موت» النظام السياسي تدريجيا.

13- فمن نتائج البدونة أنّ رؤساء بلدية طرابلس على سبيل المثال، كانوا من خارج المنطقة أي من الزنتان وأولاد سليمان أو تاورغاء إلى حدّ أن تمّ اعتبار تعيين المهندس عبد المجيد القعود على رأس البلدية انتصارا للسكان الطرابلسيين في حين أنّ القعود، وإن كان من حضر طرابلس إلاّ أنّه أصيل منطقة غريان (إحدى بلدات الجبل الغربي) .

وتوفير الآليّات والمؤسّسات التي تكفل التعبير المنظّم والاندراج في الحداثة وعدم الانقطاع عن العصر، الأمر الذي ولّد مجتمعين لا يلتقيان.

• تغليب البدو على الحضر والرّيف على المدينة وجعل المجتمع برمّته يعيش على إيقاع الصحراء، فيغنّي في الخيمة ويلبس الجرد (اللّباس التقليدي) على شاكلة البدوي ويفكّر مثله تماما بحجّة الوفاء للقيم الأصيلة أي قيم الأجداد.

ولعلّ ذلك ما يوحي باستغلال الشروخ الثقافيّة والاجتماعية الموجودة في كل المجتمعات، وتوظيفها في سياقات سياسية ظرفية ومحدودة على الرّغم من أنّ البداوة تتوفّر على منظومة من القيم والتّمثّلات ذات المنزع الإيجابي يمكن استثمارها في تدعيم التضامن وتمتين صلابة المجتمع، ولكن شريطة عدم تسييس القبيلة واستعمالها لأغراض آنية. فواحدة من المشاكل التي أعاقت التّحديث المجتمعيّ هي الاستغلال المتعمّد للقبيلة في التّعبئة والرّقابة السياسيتين.



ولعلّ خير تكثيف لهذا الحرص على تأكيد المرجعيّة البدويّة وعلى التمسّك بالبداوة باعتبارها هويّة وانتماء ونمط حياة هو «الشعار» المعروف الذي رفعه الموالون للنظام السابق وكان يُرَدّد في أغلب المناسبات السياسيّة :

ابْوَادِي لبَّاسِيـنْ جْــرُودْ

ايْهِبُّوا أليَا صَــار البَــارُودْ

إنّ الملاحظ هنا في مضمون «الشعار» هو هذا الحرص على التّلازم بين الهويّة البدويّة من جهة وامتلاك البارود أي قوّة النّار من جهة أخرى. فالشخصيّة البدويّة لا ترى في البداوة مجرّد مرجعيّة ثقافيّة -على أهميّتها - وإنّما تنظر إليها باعتبارها مصدر قوّة سياسية وزعاماتيّة واجتماعيّة وغلبة للخصم خاصّة إذا ما كان الخصم قبليّا. ذلك أنّ تأويل النار في الأساطير القديمة[14] غالبا، ما ارتبط بالقوّة القاهرة والقادرة على الإفناء[15] وتحديدا على إفناء الخصم وحرقه، كما تدلّ النّار في الذهنيّة البدويّة على قيمة مركزيّة ألا وهي قيمة الفحولة وإثبات الرّجولة والتّفاخر بها[16] باعتبارها عنصر قوّة رمزية وفعليّة. فالرّمز جزء أساسي من العلاقات ومن التفاعلات

14-Olivier Reboul, *Le slogan*, Paris, « Collection Complexe », Editions P.U.F., 1975, pp.57-75.

15 - *Encyclopædie Universalis*, Corpus 9, 1996, pp. 427-431.

16 - Nadia Tazi, « Le désir éternel, visage de la virilité au Maghreb », *in Revue Intersignes* n°11-12, printemps 1998, pp.27-31.

داخل المجتمع البدوي. فهذا «الشّعار الثّوري» الذي تمّ تداوله على امتداد أكثر من ثلاثين سنة من قبل الموالين للنظام السابق يعكس التفاخر بالقدرة على التعبئة القبليّة السريعة تدليلا على قوّة العصبية وفق المعنى الخلدوني، وشدّة الشوكة والشأفة، وتدليلا خاصّة على عدم الرّهبة من النّار[17] والجاهزيّة الدائمة للقتال خاصّة وأنّ النظام السياسي السابق كان في كلّ مناسبة يعرّف نفسه على أنّه في مواجهة أمريكا زعيمة الإمبريالية وحاضنا سياسيا لحركات التحرّر الوطني في العالم الثّالث ومقاوما للهيمنة الرأسماليّة العالميّة وحريصا على تحقيق الوحدة العربية الشاملة؛ وهي مرجعيّة إيديولوجية لطالما حرص النظام على تأكيد الانتماء إليها، وحتى ممارستها على طريقته.

ومن أجل مزيد توضيح فكرة البَدْوَنة السياسيّة، نشير إلى أنّ فلسفة النظام السابق كانت تقوم، فيما

17- لمزيد توضيح العلاقة بين البدوي والسلاح، وهذا الإصرار على جمعه بعد الانتفاضة، نقترح العودة إلى: محي الدين صابر، مقدمة في علم الاجتماع البدوي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، [دون تاريخ]، ص 15.

تقوم، على تدمير الدولة بكلّ هياكلها وعلى تشجيع اللّيبيين على المشاركة في التدمير بحجّة القضاء على كلّ الحواجز والموانع بين الحاكم والمحكوم طورا وتحقيق الديمقراطيّة الشعبيّة المباشرة التي ترفُضُ تماما التمثيل باعتباره تدجيلا طورا آخر. ولكن مثل هذه «الفلسفة» لم يواكبها اقتناع فعلي من قبل اللّيبيين، فلم تكن الفلسفة مفهُومَة بما فيه الكفاية ولم تكن الآليّات المستعملة ناجعة ولا مناسبة مثلما لاحظنا ذلك ميدانيا.

ولمزيد توضيح هذه المعلومات، نشير إلى أنّ فكرة هدم الدولة التقليدية جاءت نتيجة لقراءات في الفلسفة الماركسية والفوضوية، ولكنها لقيت ترحيبا مفهوما من البدو باعتبارهم غير مقتنعين أصلا بفلسفة الدولة والقانون والمؤسسات وحريصين أكثر على ممارسة منطق الغنيمة.

وقد شجّعنا هذا الاستنتاج على بناء فرضيّة أخرى مؤدّاها أنّ جـذور الإخـفـاق الـسياسي والاقتصادي

تكمن في هذه الفكرة الطوباويّة التي ولّدت العديد من النتائج السّلبيّة. فمن الأكيد أنّ الديمقراطية المباشرة، كما تسمّى رسميا، استبسلت في تنفيذ المراقبة الإدارية والسياسية وخاصّة الأمنية في هذه «البيئة الصحراوية الشاسعة»، ولكنها شاركت في إعادة إنتاج البدونة السياسيّة وتأكيد دور القبيلة السياسيّ والاجتماعي التي أصبحت تتحكّم في ظاهرة التّصعيد[18] (شكل من الانتخابات المحليّة)، فاتّخذ بموجب ذلك، الآداء السياسي طابعا قبليا وأصبحت القبيلة بفعل ذلك مسيطرة على البلاد وصارت، نتيجة لذلك تتدخّل في كلّ كبيرة وصغيرة في حياة الأفراد، ولكن دون أن تحصُل على مرتبة الشريك السياسي للنّظام. فتلك منزلة صعبةُ المنال وتحتاج إلى كثير من التنازلات من قبل الحاكم خاصّة. فمهما اختلفت القراءات والمواقف، فإنّ الحصول على الخدمات المشار إليها كان يخضع للثقل السياسي

18 - محمد زاهي المغيربي، المجتمع المدني والتحوّل الديمقراطي في ليبيا، مركز ابن خلدون للدراسات الإنسانيّة ودار الأمين للنشر، القاهرة، 1995، ص 185.

والاجتماعي للمناطق والقبائل بغض النظر عن المعارضة والموالاة. فاستفادت، بموجب هذا المتغير المهم، مصراته والبراعصة والعبيدات وبني وليد والقذاذفة والمقارحة وأولاد سليمان والزنتان، ولكن تضرّر، في مقابل ذلك، الأمازيغ والطرابلسية والعلالقه وزوارة وترهونة وورشفانة (سهل جفارة) والعجيلات والجميل وراقدالين والنوائل والصيعان والمشاشية والتبو والطوارق؛ وهي مناطق وقبائل مهمّة سياسيّا وديموغرافيّا في ليبيا. ولمزيد توضيح فكرة البدونة السياسية، يمكن أن نلاحظ أنه تم العمل على استمالة قادة القبائل والشيوخ والأشخاص الذين من شأنهم التأثير في قبائلهم وعشائرهم. كما تمت الاستعانة بعدد من الضباط الكبار المتقاعدين الذين يتمتّعون بسطوة رمزية وفعلية على قبائلهم لمنع تكوّن المعارضات وتشكّل التنظيمات المعارضة محليّا. كما أدى هؤلاء الضباط دورا مهما في ضمان تأييد النظام السابق وتجنيد الموالين من خلال هيكل «القيادات الشعبية والاجتماعية».

فكانت النتيجة المرتقبة أن أنتجت البدونة المفروضة فراغا مؤسّساتيّا وسياسيّا هائلا وتحوّلت بتشجيع من النظام إلى سيّدة هذه الصحراء المترامية؛ فلا يحصُل الفرد على قرض أو منحة دراسيّة أو ترخيص مالي للعلاج في الخارج أو تعيين دون دعم من قبيلته، فأصبحت القبيلة تشارك في الرقابة الإدارية والأمنية في الجهات دون أن تحظى بمرتبة الشّريك السّياسي. وتلك هي مفارقة أخرى يطول الحديث فيها وتحتاج إلى دراسة بحالها.

ويسمح هذا الوضع الاستثنائي بتقسيم للعمل السياسي يتمثّل في مقايضة ضمنيّة أو حتّى صريحة تُساعد القبيلة على السيطرة على الجغرافيا وإعادة إنتاج السلطة مقابل الحصول على موارد الغنيمة وإمكانيّات الغلبة. وبما أنّ القبيلة حريصة بالأساس على الغلبة والسيطرة على الخصم، فإنّها تقبل -كرهًا أو اقتناعا- بالدّخول في منطق الزبونيّة السياسيّة والمادية والاستفادة من الأوضاع السياسيّة القائمة

طالما أنّها تفضي إلى الوصول إلى منابع القوّة مثلما سنوضّح ذلك في إحدى فقرات الكتاب.

فمن المسائل التي لم تُدرس بما فيه الكفاية هي أنّ القبيلة ساعدت على إنجاح البدونة حين هيّأت لها الأرضية الملائمة وشاركت النّظام السياسي في فرضها وتحويلها إلى نمط عيش.

البداوة بنية ذهنيّة و ثقافة متحكّمة في السلوك

فمثلما أسلفنا القول في موقع آخر من البحث، فقد تراجعت البداوة من النّاحية المعيشيّة والأنثروبولوجية واستقرّ اللّيبيّون في مجتمعات سكنيّة ومناطق حضريّة، وبلغت نسبة التحضّر شأنا مرتفعا حسب الباحث اللّيبي مصطفى التير[19]، واعتمدت ليبيا اقتصاد السوق منذ 1990. ولكن البداوة باعتبارها

19 - مسيرة تحديث المجتمع اللّيبي، مواءمة بين القديم والجديد، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1992، ص 100، انظر أيضا : اتجاهات التحضّر في المجتمع العربي، الدار البيضاء، 1995، ص 51.

بنية ذهنيّة وثقافيّة ضاغطة بالمعنى الدوركايمي[20] والمبنية أصلا على إعلاء المرجعيّة القبليّة والمبالغة في شأنها والافتخار بالأصول وبالنّسب الأسري والجهوي والمناطقي، وعلى مجموعة خصائص وتمثّلات وسلوكيّات لا تزال حاضرة بقوة في الحياة اليوميّة.

فمن الواضح أنّ البداوة باعتبارها ثقافة وتمثّلا لا تزال مؤثّرة في الشخصيّة القاعديّة ومتحكّمة في جزء من السلوكيات ومن العلاقات الاجتماعية. ولمزيد توضيح هذه الفكرة، نشير إلى أنّ شخصيّة البدوي تحبّ بعمق وصدق ولكنّها تكره كذلك بشدّة. فقد تفاعل اللّيبيون مع النظام الملكي (1951-1969) إيجابا مثلما يؤكّد ذلك مجيد خدوري (في كتابه «ليبيا الحديثة» ص 145، 195، 209). وقبلوا بالملك حاكما عليهم على الرغم من تحفّظات جزء من سكّان

20- Emile Durkheim, *Les règles de la méthode sociologique*, Paris, Editions Flammarion, 1988, p.109.

طرابلس[21]، ولكن سرعان ما انقلبوا عليه، وحرّضت بعض القوى السياسيّة عليه وشجّعت الجيش على الإطاحة به. كما فرح اللّيبيون بالنّظام الجديد وخرجوا في مسيرات شعبية دفاعا عن الحكّام الجدد[22]. ومهما اختلفنا في القراءة والموقف، فهذا المعطى السياسي والسوسيولوجي لا يمكن إنكاره بحال من الأحوال، إذا أردنا أن نكون موضوعيين. فقد حظي التغيير السياسي في الأوّل من سبتمبر بقبول شعبي ملحوظ وتفاعلت معه الطبقة الوسطى تفاعلا إيجابيا، ولكن سنوات قليلة بعد هذا التغيير، بدأ القلق والملل السياسيان في الظّهور، وبدأت حالات الإحباط في البروز وتشكّلت، تدريجيا، في صلب النّظام وفي تخومه معارضات، وإن كانت قليلة من الناحية الديموغرافية،إلاّ أنّها كانت رافضة

---

21 - لقد جاء توحيد الأقاليم الثلاثة (طرابلس وبرقة وفزّان) من أجل توزيع الريع النفطي أساسا، فبقي البناء السياسي رخوا وهشّا.

22 - لا يمكن الشكّ في أنّ النظام السابق حظي بقبول واسع في بدايته، إلّا أنّ منطق التاريخ يقتضي أن تبرز المعارضات. انظر، محمد زاهي المغيربي، المجتمع المدني والتحوّل الديمقراطي في ليبيا، دار الأمين، القاهرة، ص51.

للاختيارات القائمة. وتنامت هذه المعارضات بفعل الزمن إلى أن أنتجت، تدريجيا، 17 فبراير 2011 المدعوم من الوضع الدولي المشجع له.

فإضافة إلى تراكم الإخفاقات والإحباطات الاقتصاديّة والاجتماعيّة وخاصّة السياسيّة، يكون مفيدا، من الناحية المنهجيّة، اعتماد الشخصيّة القاعديّة متغيّرا تفسيريا لحالة الانتفاض هذه. فالشخصيّة البدويّة بحكم طبعها الارتجالي لا تحبّذ الاستقرار لأنّه مرادف، ببساطة، للموت والفناء في حين أنّ البدوي محبّ للحياة على شظفها ؛ وهو يتمتّع بها في حلّه وترحاله على حدّ تعبير المؤلّف محمد المرزوقي[23]. لذلك فهو حين يتمتّع بالتنقّل وراء المرعى ونقاط الماء يجدّد حياته متمتّعا بالتّرحل من مكان إلى آخر، على النقيض، من شريحة الفلاّحين المحافظة[24]

23- مع البدو في حلّهم وترحالهم، الدار العربيّة للكتاب، طرابلس، تونس، 1980، 311 صفحة.

24- نيكولاي بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث منتصف القرن السادس عشر مطلع القرن العشرين، ترجمة عماد حاتم، مركز جهاد اللّيبيين، طرابلس، 1991، ص 154.

بطبيعتها والتي تعتبر التنقّل فناء ذاتيّا وإفناء للمزروعات والحيوانات[25]. فالخاصيّة الثانية البارزة في الشخصيّة القاعديّة هي أنّها غير ميّالة للاستقرار Instable personality على حال واحدة وفي موقع واحد باعتبار البداوة تمثّلا ووعيا وسلوكا معيشيّا

25- شخصيّة البدوي هي إجمالا ملُولة، ولهذا فهو يحبّذ التنقّل بين المراعي، ولكن أيضا التنقّل بين النساء، وكأنّه يريد امتلاكهنّ جميعا، حتّى ولو كان ذلك مؤقّتا. فحتّى المؤسّسات الحكوميّة كانت تترحّل هي أيضا من مكان إلى آخر دون سابق إعلام ودون إشارات إلى ذلك وكأنّها حالة تيه، وأمّا صيانة المؤسّسات وهياكل الإنتاج فكانت غائبة. وتلك هي، فيما يبدو لنا، أمارات الشخصيّة القاعديّة البدويّة والمتمثّلة في غياب الاستمراريّة وروح الديمومة في الآداء والعمل والإنتاج وخاصّة عدم الاكتراث بالتفاصيل والجزئيّات؛ وهو مصدر الفشل الذي لمسناه في مستويات عديدة في ليبيا.

إنّ البدوي يتحمّل بصبر وجلد استثنائيين شظف العيش وشحّ الموارد الاقتصادية ويتأقلم بسرعة ولا يتبرّم ولا يبدي ضيقا. ولكنه بمجرّد أن تتحسّن أوضاعه ومداخيله، يعمد إلى إظهار موارده وإلى التّباهي حتّى إن كان ذلك يعني الاستفزاز. فذلك جزء من توازنه النّفسي ومن خصائص شخصيّته ومن الرّسائل التي يحرص على إرسالها إلى محيطه لأنّها تكسبه مهابة وحظوة. ولعلّ ذلك ما يؤكّد أنّ المال لا يكون بالضرورة مجال استثمار عقلاني كما يؤكّد ذلك عالم الاجتماع الألماني «ماكس فيبر» ؛ وإنّما يمكن أن يكون خاضعا للأهواء الفردية والنّوازع الذاتيّة والاستعمالات غير العقلانيّة. انظر بخاصة :

Albert (O.) Hirschman, *Le passioni e gli interessi*, « Saggi Universale Economica Feltrinelli », Feltrinelli, Roma, 2011.

انظر أيضا : المونوغرافيا الجغراأنتروبولوجيّة التي وضعها Jean Despois بعنوان :

- *Le Djebel Nefousa, (Tripolitaine), Etude géographique*, Paris, Larose- Editeurs, 1935, pp.303-308.

يوميّا. فكيف للفرد اللّيبي أن يعرف الاستقرار إذا كان المجتمع برمّته غير مستقرّ ؟

فهذا المجتمع المكوّن من أصول عربيّة وأمازيغيّة وإفريقية وتركيّة وألبانية وإغريقيّة عانى من شراسة القمع العثماني والإيطالي الفاشستي ولم يستقرّ إلاّ بعد الاستقلال في 24 ديسمبر 1951. ومع ذلك فحتّى النظام الملكي لم يكن مستقرّا بما فيه الكفاية بدليل أن نفوذه الفعلي لم يتجاوز طيلة 17 سنة طرابلس الكبرى في حين كانت دواخل البلاد موكولة لشيوخ القبائل والزعامات المحليّة.

فبما أنّ الدّولة ضعيفة ولا تمتلك التمثيليّة الجغرافيّة والسياسيّة الضروريّة والكافية، يلجأ الأفراد إلى قبائلهم أي الحضن الطبيعي بالنسبة إليهم، فتحوّلت البداوة إلى أسلوب حياتي ونمط معيشي ؛ وقد تدعّم هذا الشكل من البداوة بدءً من سنة 1973 وتمّ العمل على إعادة إنتاجها مجتمعيّا اعتمادا على قوّة السياسة. وانطلاقا من هذا المعطى،

تمّ إعلاء ثقافة البدو على حساب الحضر على امتداد اثنين وأربعين سنة وتغليب النّمط البدوي على بقيّة الأنماط المعيشيّة الأخرى على الرّغم من أنّها كانت قادرة على التعايش والتّلاؤم على حدّ تعبير الباحث مصطفى التير. فالمفارقة الأنتروبولوجية الأولى تكمن في أنّ البدونة المفروضة من طرف «صانع القرار» لم تفض فقط إلى إقصاء الحَضَر– وهو أمر متوقّع – وإنّما إلى «قمع» كلّ التعبيرات الثقافيّة غير البدويّة مثل المسرح والسينما والرّسم والنّحت وإخضاعها للأدلجة المفرطة. وليس أدلّ على ذلك من تراجع مختلف القطاعات الثقافيّة واهتراء المؤسّسات وانعدام المناشط، في النصف الثاني من الثمانينيات وكامل التسعينيات من القرن العشرين. والمفارقة الأنتروبولوجيّة الثانية تتمثّل في أنّ هذه البدونة القصريّة في مجتمع تتميّز بنيته الاقتصاديّة بالرّيعية المفرطة أفضت إلى شروخ وانشطارات عديدة وإلى تشظّي ليبيا من الناحية البشريّة والاجتماعيّة وإلى تعطّل حركة تقدّم المجتمع اللّيبي ؛ وقد كنّا شهودا

على ذلك على امتداد أكثر من عقدين من الزّمن، وإلى حالة من الانسداد الاجتماعي والثقافي جرّاء التنميط والأحادية الثقافيين.

لقد صارت البدونة المفروضة مرادفةً في معيش اللّيبيّين اليومي لمعاني الارتجال والانفعاليّة والتقلّب والانقلاب، في حين أنّ آداء الدّولة والمجتمع يحتاج إلى الاستقرار والمأسسة وإلى الرّسوخ والانتظام[26] مثلما ثبت ذلك في تجارب أمم أخرى بعضها قريب جدًّا من المنطقة العربية. ذلك أنّ الاستقرار لا يقلّ أهميّة وقيمة عن الرّيع البترولي والغازي والسياحي. فقد أثبتت تجارب متعدّدة أنّه لا تنمية ولا ديمقراطية دون استقرار. ولا غرابة في ذلك، فالاستقرار هو شرط كل آداء تنمويّ ناجح وإيجابي باعتباره الرّأسمال الأساس.

26- Moncef Ouannès, *Militaires, élites et modernisation dans la Libye contemporaine,* Paris, L'Harmattan, 2009, pp. 264-268.

فالبدونة المفروضة صارت بفعل الزّمن وعدم الاستقرار المؤسّساتي عنصر تهرئة مجتمعيّة وفوضى وحساسيّات مخياليّة بين البدو والحضر من جهة وبين المدينة والبادية بل قُلْ بين مجموعة من مناطق ليبيا من جهة أخرى[27]. فتحوّلت ليبيا بفعل الواقع إلى جغرافيا شاسعة من العداوات ومشاريع الثّأر المؤجّلة. يقول الشاعر محمد عبد الله بالأمّة الهوني في هذا السياق مؤكّدا معاني الواقعيّة والتسليم بالأمر الواقع :

بَعْدْ الدْلاَلْ وحُوشْ بُوسُكّـارَه
فِي كِيـبْ حلفَهْ وقَبَتهْ قْطَـارَهْ
بعد الدْلالْ وحُوشْ عَالِي سَاسَهْ
وَالغَالِي إمقَعمز بين جِمْلَتْ نَاسَهْ
اليُومْ كِيبْ حَلْفَهْ وفُوقْ منه طَاسَهْ
وْيَا عِينْ كُونِي علَى القضَاء صَبّارَهْ

27- حـوار معمّـق مـع الهـادي المشـيرقي أحـد أبـرز السياسـيين والنقابيـين ورجـال الأعـمال في العهـد الملـكي وذلـك في مدينـة طرابلـس يـوم 1999/08/27.

ولكنّ الشخصيّة القاعديّة البدويّة على الرغم من كلّ الصفات السابقة واقعيّة بامتياز بل قل براجماتيّة أي تجيد استعمال قوانين الرّبح والخسارة Realistic and pragramatic personality وتشخّص بدقّة مجالات نفعها ومواطن مصلحتها على الرّغم من ثقافة الترحّل والرّعي وعدم الاستقرار.[28] وتلك هي المفارقة الأنتروبولوجية الثالثة التي تحتاج إلى التحليل والفهم. فالمنطق القبلي لا يسمح بالانحياز إلاّ للغالب ولا يغامر بالانحياز للمغلوب ولا يقامر بمناصرته لأنّ مقياس التّعامل مع الآخر ينبني على تشخيص دقيق للكسب ومعرفة ذكيّة بمواقع الاستفادة. فعدد من القبائل اختار الانحياز للانتفاضة سنة 2011 لأنّ تدخّل الحلف الأطلسي جعل الأمور واضحة منذ البداية وأكّد، بما لا يدعو مجالا للشّك، أنّ النّظام

28 - على الرّغم من أنّ الباحث اللّيبي عبد الله القويري يتحدّث عن رسوخ المدن في التاريخ القديم والحديث واستقرار سكّان ليبيا، ولكنّه ينسى أنّ البداوة ذهنيّة وثقافة قبل أن تكون واقعا ماديّا. فالتّحضّر المادّي لا يفسخ الذّهنيّة البدوية.
انظر: تحديدا كتابه : معنى كيان : محاولة نظريّة لفهم الواقع اللّيبي، سلسلة «دراسات ليبيّة»، مطابع دار لبنان، [دون تاريخ]، 55 صفحة، ص 9-10.

القائم أنذاك سيكون الخاسر في هذه المعركة جرّاء تدخّل النّاتو واستعمال التكنولوجيا العسكرية المتطوّرة في عمليّات القصف، في حين ستكون الغلبة للشقّ المعارض. ولذلك، فالانحياز للمغلوب لا يقبله المنطق القبلي لأنّه مرادف للهزيمة والحرمان من الوصول إلى الغنيمة. فالبداوة والواقعيّة يتعايشان بشكل جيّد على النّقيض من بعض القراءات المشكّكة في ذلك.إذن فقبيلة الزّنتان المتمركزة في الجبل الغربي كانت على علاقة وثيقة بالنّظام السابق، واحتضنت عددا من معسكراته، ولكنّها انحازت، من باب الواقعية السياسية، إلى الشقّ الموعود بالغلبة، كما انحازت من قبل، وفي فترات محدّدة، إلى الأتراك. ولعلّ ذلك ما نسمّيه بفنّ بناء التحالفات ونقضها حسب السياقات والظروف، وحسب قاعدة الوصول إلى الغنيمة قصد تحقيق الغلبة وهي فكرة يدعمها أيضا الباحث اللّيبي علي عبد اللطيف إحميدة[29] .

29- Ali Abdullatif Ahmida, *The making of modern Libya state formation, colonization and resistance (1830-1932).* State University of New York Press, 1994, pp. 103-140.

فقد كانت هذه القبيلة حليفا للإيطاليين وغيّرت تحالفها بعد معركة القرضابية التي دارت في صحراء سرت بتاريخ 29 أفريل 1915 أي بعد غلبة المجاهدين الجيش الإيطالي المدجّج بالسّلاح والمزوّد بخبرة عسكريّة متطوّرة.

ولذلك انعدمت وشائج الثّقة بينها وبين الإيطاليين بعد سنة 1922، الذين عمدوا إلى تغليب خصومهم التاريخيين في منطقة جادو. ولا غرابة في ذلك، فقد كان الإيطاليون، لاعتبارات عسكرية معلومة، من أخبر النّاس بتعقيدات العلاقات القبليّة، وبكيفية توظيفها لصالح إيطاليا[30].

ويمكن أن نضرب أمثلة عديدة على ذلك وأن نعدّد التّواريخ والوقائع المتشابهة التي تؤكّد هذه البنية

30 - معلومات مستقاة من حوار مع الباحث موسى الفقي، في تونس بتاريخ 2013/10/22. ولمزيد التدليل على سطوة هذه القبيلة، نشير إلى أنّه حينما وضع الشاعر محمّد سعيد القشاط كتابه هاجيا قبيلة الزّنتان، هدّدت هذه الأخيرة بحرق المكتبات التي تقوم بعرضه، فسحبت الرقابة الكتاب استجابة لهذا الضّغط؛ وهو أمر استثنائي في تاريخ ليبيا المعاصر والرّاهن.

الذهنيّة البدويّة حتّى وإن كان هذا التاريخ القبلي يثير بعض الحساسيّة التي لا نروم الدخول في ثناياها وتجاعيدها. ولعلّ ذلك ما يوصلنا إلى الخاصّية الثالثة، وهي الخاصيّة الأبرز والمتمثّلة في روح الغلبة والحرص على الهيمنة والواقعية في التعامل مع الآخرين dominating personality. فمعظم القبائل التي «تطلْيَنَتْ» ووالت إيطاليا تحديدا، فعلت ذلك من باب الحرص على تملّك موارد غلبة القبائل الأخرى وليس حبّا في إيطاليا. وأمّا إذا كانت القبيلة معارضة لإيطاليا، فإنّ خصمها ينخرط في منطق الولاء، فإذا كانت مصراته، على سبيل المثال مواليةً، فإنّ خصمها أي ورفلة تختار معسكر الجهاد والمجاهدين، الأمر الذي يؤكّد بأنّ القبائل تجيد تبادل المواقع وتغيير التحالفات[31] حسب المكسب المنتظر.

---

31 - من أجل فهم منهجيّة تحليل الظاهرة الاستعمارية الإيطالية؛ وهي منهجيّة مركّبة وصعبة، نقترح العودة أسَاسًا إلى كتاب :

Jean Despois, *La colonisation italienne en Libye : Problèmes et méthodes,* Paris, Larose- Editeurs, 1935, pp. 105-122.

وأمّا إذا كانت قبيلة المشاشيه* (جبل نفوسة) ضدّ إيطاليا، فإنّ خصومها من قبيلة الزّنتان يفضّلون الموالاة. فالحرص على غلبة الخصم وهزمه خاصيّة أساسيّة من خصائص شخصية البدو. ولذلك ترى أفراد القبيلة متكاتفين ومتضامنين[32] وكأنّهم على قلب رجل واحد حينما يتعلّق الأمر بالانتصار على الخصم وأخذ الثّأر منه حتّى وإنّ أدّى الأمر إلى استعمال أقصى أنواع العنف والانتقام الشديد. مثلما أسلفنا القول، فالشخصيّة البدويّة تحبّ بقوّة وتكره بقوّة أشدّ، أي هي ميّالة بطبعها إلى الحسم. ولهذا، فهي لا تقبل الهزيمة مهما كانت النتيجة، وتعتبرها جرحا غائرا، وتسعى إلى مداواتها مهما طال التاريخ ومهما اختلفت أساليب الردّ.

من هنا، فإن المفارقة الأنتروبولوجيّة الرابعة تكمن في كون الشخصيّة القاعديّة البدوية على الرّغم من

32- لوجلي صالح الزوي، البادية اللّيبيّة، الحاضر والمستقبل، جامعة قاريونس، بنغازي، 1998، ص 52-53.

* المشاشية قبيلة صغيرة من قبائل الجبل الغربي؛ وهي ذات أصول عربية متأكدة.

حرصها على الغلبة وعلى إفناء الخصوم حتّى إن كان جسديّا، وعلى الرّغم من شحّ الموارد الاقتصادية، فإنّها تعاون المحتاجين وتعاضد الفقراء والأيتام والأرامل دون أن تتخلّى عن عقليّة الثّأر وإلحاق الأذيّة بالخصوم والمعارضين والحسم معهم اعتمادا على العنف وحتّى على القتال مثلما يحصل الآن في ليبيا منذ أكثر من سنتين.

ولكن هذا الكرم كما حلّله بعمق عالم الاجتماع العراقي علي الوردي يضاعف من فرص الغلبة ويوفّر لها مواردها الضروريّة. فهو إذن كرمٌ وظيفيٌّ ومبرمجٌ باعتباره يساعد على أسْرِ الشخص الذي يتمّ إكرامه وإخضاعه لرأسمال رمزي من الضغط والإكراه. فالكرم القبلي، ليس فعلا عاديا ولا عفويا، وإنّما هو دَيْن رمزي وفعلي متخلّد بذمّة الأشخاص المكرّمين يتمّ استحضاره عند الحاجة وتوظيفه في السياق والوقت المناسبين. وصندوق القبيلة -وهو تقليد قبلي سائد في أغلب الجهات- لا يساعد

فقط على رصّ الصفوف وضمان آليات التّضامن والتّكاتف وتنظيم الأفراح والأعراس، وإنّما يساعد خاصّة على عقد الصفقات الاجتماعيّة والسياسيّة والرّمزيّة وعلى «شراء» ولاء الآخرين وتوسيع دائرة الموالين والأنصار. إن الغلبة ليست فقط غلبة سياسيّة من خلال قوّة الشوكة والعصبيّة وحدّة الثّأر بين القبائل[33] وإخضاع الخصوم، وإنّما هي أيضا غلبة

33 - هناك قراءة تقول إنّ الاستعانة بالحلف الأطلسي إبّان الانتفاضة اللّيبيّة سنة 2011، كانت من أجل كسر شوكة الخصم القبلي، وهو ما يعدّ استمراريّة لذهنية السعي من أجل الغلبة والسيطرة على القبائل المنافسة.وثمّة قراءة أخرى تؤكّد أنّ ليبيا لم تجابه أزماتها التاريخيّة إلاّ اعتمادا على العامل الخارجي، مثلما فعلت الدّولة الأغلبيّة حينما حمت إقليم طرابلس الغرب سنة 805 من الاضطرابات والتوتّرات التي ميّزت كامل المرحلة. كما لا ننسى الدور الإيجابي الذي أدّته الدولة الحفصيّة في تونس (1229-1574) في إقليم طرابلس الغرب، حيث أنقذ الأمير الحفصي أبو زكريّا يحيى (1228-1245) الإقليم سنة 1242 من أطماع ملك أراغونا وصقلية ومن الاضطرابات التي كانت تتهدّد طرابلس والتي كان يثيرها أبو عبد الرحمان بن محمد الهرغي. كما أنقذ العثمانيون ليبيا سنة 1551 من الاحتلال الأسباني ومن فرسان مالطا الذين سيطروا في الفترة الفاصلة بين 1530 و1551. وعاود العثمانيون التدخّل سنة 1835 لإنقاذ ليبيا بعد انهيار الأسرة القرمونللية وارتفاع المديونية وتزايد التبعيّة للغرب. كما تولّى الحلفاء طرد بقايا النّظام الاستعماري الإيطالي سنة 1947. وحينما واجهت الحكومة اللّيبية في مستهلّ الخمسينيات من القرن العشرين أزمة اقتصادية ومالية خانقة، عمدت في عهد رئيس الوزراء مصطفى بن حليم إلى تأجير قاعدتين عسكريتين: واحدة أمريكية والأخرى بريطانية (1951). فقد تمّ توقيع الاتفاقيّة العسكريّة اللّيبيّة الأمريكية يوم 09 سبتمبر 1954 مقابل مبلغ إجمالي مقداره 7 ملايين دولار. وأمّا

ديموغرافيّة وعدديّة. فالديمغرافيا القبليّة عنصر مهمّ بالنسبة إلى الشخصيّة البدويّة لأنّها مصدر مباهاة بين القبائل وتفاخر أمام الخصوم. ولهذا تعمل القبائل على إخفاء تعدادها السكّاني وتضخيم ما هو موجود. ومن أجل استمراريّة هذه الغلبة، ميدانيا وفعليّا، وضمان سبل القوّة، يكون ضروريّا توفّر إمكانيّات اقتصادية وماليّة، ولذلك تكون الشخصيّة البدوية نهّابة ووهّابة.[34] فهي تأخذ ما عند الدولة وما عند الآخرين لتمارس السخاء، باعتبار أنّ المال مصدر الولاء وبناء التحالفات. ولعلّ هذا ما يفسّر أنّ البدوي يتمتّع بعبقرية الوصول إلى منابع المال، ويمكن أن يكون تاجرا بارعا يقطع مع الترحّل وعدم

=آخر الاستعانات فيتمثّل في المساعدة العسكرية الأطلسية لدعم انتفاضة فيفري 2011. فمن الطبيعي إذن أن تطالب الحكومة اللّيبية في منتصف نوفمبر 2013، بتدخل الحلف الأطلسي لقمع المليشيات المسلّحة الرافضة لسلطة الحكم القائم والمسيطرة على كامل الجغرافيا اللّيبية.

34 - البدوي يمارس الغزوات ليس حبّا فيها وإنّما من أجل توفير الموارد الماليّة للغلبة وضمان الولاء والسطوة الذهنيّة والمعنويّة على الآخرين. أنظر بخاصة علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة العاني، بغداد 1965، ص 32.

الاستقرار خاصة وأننا اشتغلنا على مسارات الحياة لرجال الأعمال والمقاولين في ليبيا المعاصرة. وتلك هي علامة واقعيّة قويّة يجدر بنا الاشتغال عليها ذات يوم. قد تفيد الواقعيّة ضربا من العقلانيّة والذّكاء في تسيير الحياة اليوميّة، ولكنّها تعني كذلك القبول بالأمر الواقع والتسليم به بل قل التلاؤم معه. كما تعني هذه الواقعيّة السوداء مهادنة السّوء والسّعي إلى الاستفادة منه. ولمزيد تقريب هذه الصورة، نشير إلى أنّ هذه المهادنة أفضت إلى أن تداول على السّلطة في المنطقة العربيّة حكّام أشرار أنتجوا ما أنتجوا من إخفاق وفشل وإذاية جماعية.

فمن المهمّ في المجتمع البدوي إرسال إشارات قويّة إلى المحيط الخارجي وإبداء مظاهر القوّة والاقتدار المادّي. فمثل هذه الإشارات هي جزء مهمّ من الرّسائل الرّمزيّة[35] التي هي أساسية، ذلك أنّ إبداء

35 - فمن علامات غياب الاقتصاد عند الشخصيّة البدويّة هو أنّ الأشقّاء الخمسة في عائلة واحدة والذين يسكنون ضيعة واحدة يذهبون إلى صلاة الجمعة -وهي مناسبة روحية جماعية- في سيارات خمسة تأكيدا على حبّ التّباهي وإظهار الاقتدار المادّي من جهة وإثباتا لهذا الميل للإسراف من جهة أخرى.

مظاهر الضعف والاحتياج، يُفضي إلى التحقير وحتّى إلى الإقصاء في مجتمع يرفض أيّ شكل من أشكال الاحتقار ويحرص على الهيمنة والاستئثار بمصادر الغلبة بما يفترضه ذلك من صراع.[36] وأمّا الخاصيّة الرّابعة في الشخصيّة البدوية فهي خاصيّة الشمول التي تعني أساسا السيطرة والاستفراد ورفض المنافسة Totalitarian and intolerant personality وإزاحة المنافس مهما كانت الأدوات المستعملة في سبيل ذلك. فعلى الرّغم من بعض مظاهر الديمقراطية القبليّة الأوّلية، من مجالس الميعاد والشورى ولقاءات الشيوخ، فإنّ الشخصيّة القبليّة هي، في طبيعتها

36 - يكون مفيدا من الناحية الأنتروبولوجية أن نشير إلى التّنافس بل قل تحديدا التنافر بين الشرق والغرب. فالشرقُ لا يقبل بسهولة سلطة الغرب (الغرابة) ولذلك تمّ التّهديد بالانفصال سنة 1951 وتمّ فرض لجنة الستين لكتابة الدستور. كما تمّ الإصرار على أن يكون الملك إدريس ملكا لأقاليم ليبيا. ولعلّ هذا ما يفسّر - ولو جزئيّا - الفكرة الرّائجة بان التغيير السياسي سنة 1969 هو افتكاك للحكم من قبل الغرب اللّيبي (الغرابة) بعد عقدين من حكم (الشراقة) أي حكم برقة. فلا يجب أن ننسى أنّ الشرق اللّيبي بقي مواليا أساسا للسنوسية لاعتبارات تاريخيّة ودينيّة معروفة. ولعلّ هذا ما يفسّر تمركز المعارضة السياسية والدينية في الشرق اللّيبي. فبعد عقود أربعة من التعبئة الثوريّة، بقي الشرق ملكيا بدليل ظهور العلم السنوسي أياما قليلة بعد 17 فيفري.

العاديّة، شموليّة وغير ميّالة لقبول الاختلاف بغضّ النّظر عن هويّته، وغير مرتاحة للمنافسة الأمر الذي يجعل منها شاملة بمعنى عدم قبول الاختلاف وغير محاورة. تعطيك الشخصيّة البدويّة انطباعا بالهدوء والدماثة وخاصّة التدين المترافق مع بعض الشدّة في ممارسة الشعائر التي لا تخلو من التظاهر، ولكنّك حينما تقترب منها وتسلّط عليها عين الملاحظ الأنتروبولوجي تكتشف أنّها تتوفّر على قدر من التسلّط والميل السريع للحسم والحرص على الغلبة واللّجوء إلى تَقْليدِ الثّأر القبلي لمداواة الهزيمة بغضّ النّظر إن كانت فعلية أو رمزيّة، ماديّة أو معنويّة. فلا غلبة دون تسلّط ولا غلبة دون عصبية وزبونية. ولا سطوة دون قوّة مال ورجال وبارود[37] مثلما يؤكّد ذلك مضمون «الشعار الثوري» الذي كنّا أوردناه في

37 - حينما نتأمّل هذا الاستنتاج العام - على محدوديّته - يمكنك أن نصل إلى اكتشاف وشائج - ضمنيّة وأخرى صريحة - بينه وبين المقولة الشهيرة «الثروة والسلطة والسلاح بيد الشعب» التي وردت في الجزء الثاني من الكتاب الأخضر. ونترك للقارئ اكتشاف هذه الوشائج.

مستهلّ الكتاب. إنّ هذا الاستنتاج الأنتروبولوجي لا يشكّل فقط إحياء لبعض مستويات القراءة الخلدونيّة، مثل العصبيّة والغنيمة والغلبة، وإنّما يمكن أن يكون مفتاحا نظريّا ومعرفيّا مهمّا لفهم آليّات الآداء السياسي ونتائجه في العقود الأربعة الأخيرة بكلّ ما يعنيه ذلك من انغلاق واستفراد وغلبة دائمة وزبونية سياسية ومادية شملت كلّ مجالات الحياة حتّى سباق الخيول، في حين كان بالإمكان اختيار أداء آخر أكثر تميّزا ونجاعة.

الشخصية الليبيّة وذهنية الغلبة

إنّ البدونة المفروضة التي مورست على امتداد أكثر من ثلاثة عقود، وكما لاحظناها في المعيش اليومي، مرادفة أيضا لمعاني الغلبة والسطوة بغضّ النظر عن هويّة الفاعل إن كان فردا أو عائلة أو قبيلة خاصّة وأنّ الريع البترولي يساعد كثيرا على الزبونية وعلى بناء الولاء وإبرام المقايضات السياسية والاجتماعية

Political and social transactions. فحتى الفئات المختلفة التي تمكّنت من مفاصل «الدّولة» والسلطة - جزئيّا أو كليّا - أعادت إنتاج آليّات الغلبة اعتمادا على ثالوث الريع والخوف والزبونية، الأمر الذي يعطينا انطباعا إذا ما استعملنا أدوات الأنتروبولوجيا السياسيّة[38] أنّنا إزاء شكل مبتكر من تقسيم العمل السياسي الذي يعيد إنتاج الغلبة في المستويات العليا والوسطى. ذلك أنّ الفاعل داخل أجهزة السلطة لا يعبّر فقط عن هويّته الفرديّة، وإنّما كذلك عن مرجعيّته القبليّة[39]؛ فهو موال لقبيلته وليس مواليا بالضرورة للدولة؛ وهو مرتبطٌ بالجغرافيا القبلية أكثر من الوطن؛ وهو حريص على أن يضمن لقبيلته الحدّ الأدنى من الغلبة الريعيّة والمالية والخدماتيّة وخاصّة السياسيّة بدل حرصه

38- George Balandier, *Anthropologie politique*, Paris, Collection « Quadrige » P.U.F., 1967, Cf. Claude Rivière, *L'anthropologie politique*, Paris, Armand Colin, 2000.

39- تعرفنا خلال البحث إلى أرفع الكفاءات الليبية التي كانت تحرص على أن تعرّف نفسها اعتمادا على قبائلها.

على توزيع عادل للثروات الوطنيّة ؛ وهو يستعمل موارد الدولة ليستلزم الآخرين ويوسّع من دائرة المناصرين على عكس الحضري الذي يغلّب مصلحته الشخصيّة. فمثل هذه البيئة هي التي خلقت الانسداد ووفّرت ظروف الانفجار والانتفاضة، في بلد يمتلك كلّ مقوّمات النجاح قياسا بالعالم العربي وأفريقيا. وبناء عليه، لا يجب، منهجيا، استبعاد متغيّر الشخصيّة القاعديّة عند تفسير جذور الأزمة وعند تحليل مبرّرات الانتفاضة التي اندلعت في البلد. ففي ذلك تنويع لزوايا الهجوم العلمي على مثل هذا المبحث الصّعب والمركّب في آن.

فالغلبة، وفق معناها السياسي والاجتماعي، هي عبارة عن مجموعة من الحلقات المتشابكة والمترابطة التي تضمن للفاعل ريعا رمزيا وقوّة إكراهية تحقّق السّطوة وإعادة إنتاج القبيلة ومنع تدفّق الثّروة، أفقيا وعموديا، من جهة والحيلولة دون وصولها إلى الفئات الخصمة من جهة أخرى. وبمقتضى هذا

الفهم للغلبة، جرى إقصاء مدن وبلدات بكاملها من التنمية والريع البترولي[40] ومن الخدمات وتمّ إهمالها، على الرّغم من أنّ مدنا مثل بنغازي ومصراته تمتّعت بقدر نسبي من الاستثمار والمشاركة في السلطة، لكنّها كانت في طليعة المعارضة المسلحة. فمهما اختلف الرأي، فإنّ وضع مصراته (المدينة المدلّلة في المرحلة السابقة) وبنغازي، من الناحية الاقتصادية والاستثمارية، أفضل من مناطق أخرى مثل سَبْها وفزّان وجبل نفوسة وسهل جفارة وصبراته وزوارة والجميل وبدر وتيجي وغدامس ونالوت والجميل وراقدلين والعجيلات...

ولعلّ هذا ما يقودنا إلى الوصول إلى الخاصيّة الخامسة وهي خاصيّة الاستئثارية monopolistic personality. فكيف تتمظهر مثل هذه الخاصية وماهي تّأثيراتها في واقع المجتمع الليبي؟

40 - Yves Gazzo, *Pétrole et développement : Le cas libyen*, Edition Economica, 1979, pp. 183-187.

إنّ خصائص الواقعيّة والبراغماتيّة Pragmatic personality والغلبة وعدم قبول المنافسة تؤدّي، بغضّ النّظر عن نوعية المسار، إلى الحرص على الموارد المتاحة في البيئة القريبة وعلى الاستئثار بها إمّا لأنّها شحيحة، وإمّا لأنّه لا يراد للآخرين الاستفادة منها. فعلى الرّغم من كلّ مظاهر الكرم وسخاء اليد والحرص على مساعدة المظلومين والفقراء والمحتاجين، فإنّ الشخصيّة القاعدية البدويّة تحرص أكثر على تأمين موارد الغلبة – الماديّة منها والرّمزيّة – وعلى الاستئثار بالثروة باعتبارها شرط الوجاهة والسطوة والنفوذ وعلى استبعاد كل من ينافس في سبيل الوصول إليها. فنظرة البدوي إلى الثروة مبنيّة على الاحتكار وليس على العدالة في التوزيع وعلى الهيمنة وليس على التقاسم التشاركي على الرّغم من مظاهر الحرص على العدالة والتديّن الطقوسي الشديد. وهي خصائص نلمس الكثير منها في علاقة السلطة السياسيّة بالثّروة الريعيّة أساسا. فالتمثّلات البدوية للثروة تقوم على أساس أنّ الغلبة

غير ممكنة إلاّ باحتكار مصادر الثروة ومنع الخصم من الوصول إليها وتوظيفها حسب السياقات والظروف. ولعلّ هذا ما يفسّر أنّ الشخصيّة البدوية لا تتردّد في خوض معركة السيطرة على منابع الموارد، بغضّ النّظر عن الكلفة المترتّبة عن ذلك وعن الانعكاسات المنتظرة. فالأنثروبولوجيا الاقتصادية تعرّف السلوك الاستئثاري بأنّه تعبير عن شحّ الموارد والرّغبة في احتكارها مهما كانت النتائج المترتّبة عن ذلك.

وتلك كانت واحدة من كبريات مشاكل ليبيا الرّاهنة. فالاستئثار يُنْتّجُ، بفعل الزّمن، تهيّؤا للانفجار واستعمالا للعنف لحماية المكتسبات، ذلك أنّ الشخصيّة القبلية حينما يتعلّق الأمر بحماية المكسب أو العرض لا تتردّد في استعمال العنف بغضّ النّظر عن هويّته. فيكفي أن نشير هنا إلى العلاقة المتوتّرة بين مصراته[41] وورفلّة وتاورغاء والقذاذفة من جهة

41 - إنّ مصراته ليست بالضرورة قبيلة وإنّما هي كتلة حضريّة عريقة تتميّز بالتجانس وبقدرة تجاريّة وماليّة وبعراقة معهودة في الحياة السياسيّة.

وبين غريان وورشفّانة وبين الزنتان والمشاشية من جهة أخرى. ولكن انتفاضــة 17 فيفري لا يجب اختزالها إلى مجرّد ثأر من القبائل التي «استأثرت» بالثروة البترولية، وإنّما هي مطالبة بمراجعة الآداء السياسي برمّته وبتوزيع عادل للثروات الوطنيّة.

وأمّا الخاصيّة السادسة البارزة فهي عدم الميل للجهد وضعف الحماس للإنتاج والعمل Non enthusiastic personality ذلك أنّ المجتمع الريعي الفجّ لا يساعد على الإنتاج، ولكن ما يتوجّب تأكيده هو أنّ الشخصيّة البدويّة لا تميل بطبعها للعمل والجهد، فهي حالَة ومَلُولَة ومترحلةٌ The unsettled personality في الزمان والمكان؛ وغير حريصة أكثر على التقيّد والقيود وحريصة أكثر على التأمّل في هذا الفضاء الصحراوي الشاسع. فالبدو يحتقرون المهن الحرفية والصناعية لأنها تقيد حريتهم في التنقل و يفضلون مهنتي الرعي والتجارة لأنهما لا يعيقان التنقل.

فيكفي أن تتوفّر الفرصة، مثلما أسلفنا الذّكر، حتى يتحوّل البدوي إلى تاجر من أذكى تجار البحر الأبيض المتوسط مثلما يؤكّد ذلك التاريخ التجاري اللّيبي ؛ وتلك مفارقة وأنتروبولوجية لافتةٌ للانتباه تحتاج التحليل، كما كنّا أشرنا إلى ذلك سابقا. ولا يمكن أن نختلف في أنّ هذه المسافة بين البداوة وبين عبقرية النّجاح في التجارة تحتاج إلى قراءة تاريخيّة ونفسيّة وأنثروبولوجيّة لفهم الأبعاد المفسّرة لمثل لهذه الظّاهرة اللاّفتة للانتباه. كما نعتزم الاشتغال وفق آليّات التحليل النّفسي والأنثروبولوجي وتاريخ الذهنيات على ظاهرة الانتقال من الشخصيّة البدوية المترحّلة والقلقة إلى الشخصيّة الواقعيّة والنفعيّة.

كما إنّ الشخصيّة البدويّة لا ميل لديها للعمل والمثابرة وغالبا ما تكون علاقتها بالزمن ممتدّة ومفتوحة في حين أنّ الزمن هو شرط من شروطٌ احترام الذات وتقديس الإنتاج. إنّ الشخصيّة البدوية لا تولي اهتماما كبيرا بقداسة الزمن؛ ولا تتقيّد بضوابط

الإنتاج؛ فهي في حالة ضمأ دائم وحرص على الإشباع مثلما عبّر عن ذلك الشّاعر الشعبي في بيت عميق في تلميحاته :

عْلِي مَا اشْــرَبْ مَــا رَاقْ

عَطْشَانْ صُوبَهْ مَازَالْ خَاطْــرِي

إنّ مثل هذا البيت دال على هذا التّعطّش للحياة والغلبة. ولا غرابة في ذلك، فالشاعر الشعبي اللّيبي عبد المطّلب الجماعي يقول، في بلاغة نادرة، وقدرة استثنائية على الإيحاء، معبّرا عن الفكرة ذاتها :

أَرْحَمْ بُويْ خَلاَّنِي هْــوَاوِي

كِيفْ النَّجْــمْ فِي قلب السْمَــا

لاَ لِي غَرْسْ مَنْبُوتَــا سْنَــاوِي

وْلاَ زِيــــتُــــونْ مِعْــــصَــارَه زْوَا

ويقول الشاعر اللّيبي جلغاف بوشعرايه[42] في السياق ذاته وفي المعنى عينه :

مْحَابيس في نَقْطَهْ سْلُوق ابقِينَا

لا نعجَهْ ولا نَاقهْ تْحوشْ علينَا

فالشخصية القاعدية البدوية تروم التنصّل من كلّ القيود بما يعنيه ذلك من ملكية قارّة ومن التزامات في العمل والإنتاج ومن استقرار وثبات ومن انضباط في السلوك اليومي. فصفة «هواوي» تعني أساسا الشخص المتحدّي لكلّ القيود والمحبّ للحريّة التي يرمز إليها أساسا عالم البداوة والتي لا يقطعها زمن ولا يعكّرها التزام أو تضييق ولا تنغّصّها تعقيدات الحياة وتوتّراتها. فالحرية بالنسبة إلى الشخصية البدوية حالة من المتعة الذهنيّة الدائمة ومن السباحة في الملكوت اللاّمتناهي مثل النجوم تماما كما عبّر عن

42 - يوسف البرغثي، المعتقلات الفاشستيّة بليبيا (دراسة تاريخيّة)، جامعة الفاتح (طرابلس حاليا)، 1985، ص 122.

ذلك الشاعر الجماعي، الأمر الذي يؤكّد أنّ وعي الزمن لا يخضع بالضرورة إلى الوعي ذاته عند الحضر، دون أن يعني ذلك قراءة انتقاصيّة لظاهرة البداوة.

فالزمن عند البدوي غير خاضع للتحقيبات والحواجز وضغوط المجال ؛ وهو لا متناه أيضا ولا تحدّه المتاريس. ولذلك فهي حريّة خارجة عن الأطر المكبّلة ومتمرّدة على إيقاع الحياة الحضريّة وضغط المدينة وتدافع أهلها من أجل إشباع الرّغبة في المتعة.

في حين أنّه يكثّف رغباته الاستهلاكية في قليل من حليب النّاقة يتبعها بل يجري وراءها في مجال صحراوي مفتوح وممتدّ حيثما يمتدّ البصر. وقد أورد الباحث اللّيبي «لوجلي صالح»[43] أبياتا من الشعر تُدَعِّم مثل هذا المعنى :

البل اتعز النفس وأنعـــم بيها

وهي عزها بالخيل تتبع فيهــا

---

43 - البادية اللّيبيّة، الحاضر والمستقبل، ص 49.

عِزّ وْهِيبَه وْهِيَ عِـزْهَا غَـــاشِـــي
كْثِيــــــــــرْ سْــبِيـــبَــهْ

وهكذا نصل إلى استنتاج بسيط مفاده أنّ الحريّة حالة ذهنيّة ومخياليّة وثقافيّة تعكس روحا حالمة وميّالة إلى تخطّي كلّ الضّوابط. فالبدوي منطلق في الزمان والمجال. ولا يريد أن تثنيه متاريس ولا أن تعرقله حواجز. ولعلّ هذا ما يساعد - ولو جزئيّا- على فهم خصائص البيئة الذهنية والثقافيّة والنفسيّة التي أنتجت فكرة إضعاف الدّولة وتوهينها وإلغاء المؤسّسات ونبذ كلّ أشكال الوساطة السياسيّة[44]، فأصبحت القبيلة بفعل ذلك الوسيط الاجتماعي والسياسي الفعلي والوحيد بين مركز الحكم والأفراد. ولكن ذلك يندرج في إطار ممارستي الزبونية والاستزلام.

---

44 - لا يتعلّق الأمر بمجرّد واقع ذهني وإنّما بأسلوب تسيير يخضع لاعتبارات شخصيّة.

ولعلّنا نذهب أبعد من ذلك حين نقول إنّها حلّت محلّ النّادي والجمعيّة والمنبر والحزب وصارت، بشكل أو بآخر، شكلا من أشكال التمثيل السياسي "أي من الوساطة بين المواطن و «الدّولة» من جهة وبين القبيلة والجهات من جهة أخرى، الأمر الذي أدّى إلى إقصاء الوساطة المدنيّة والسياسيّة أي الهياكل التعاقدية الضرورية لصالح الهياكل الطبيعية مثل الأسرة والقبيلة والمجموعة الاجتماعية.

إنّ مثل هذه الشخصيّة، على ما هي عليه من صفات، لا يمكن أن تكون شخصيّة منتجة ولا مقبلة على الجهد. فالريع البترولي منتج بطبعه لعدد من الاختلالات المجتمعية ولحالات سلوكية تتّسم بالتواكلية على أجهزة الدولة وضعف الإنتاج ومولّد لظاهرة البداوة الريعيّة أي البداوة التي تتكأ على الموارد الطاقوية من أجل السيطرة. فالريع البترولي قاتل للجهد والرّغبة في الإنتاج، ومولّد خاصة لظاهرة الاسترخاء في العمل والانتاج مثلما تؤكّد ذلك تجارب

مجتمعيّة عديدة مثل الجزائر ونيجيريا. ولعلّ هذا ما يفسّر أنّ الإنتاج قليل قياسا بالحاجيات وأنّ التوريد مفرط ويستنزف قدرا كبيرا من «الميزانيّة العامّة». فمثل هذه المشكلة ليست خاصّة بالمجتمع اللّيبي فقط وإنّما هي تشمل كذلك مجتمعات خليجية وإفريقية عديدة تغيب فيها الاستثمارات الجيّدة والبنيات التحتيّة الملائمة للعمل وتختفي فيها تقاليد توقير المواقيت وتقديس المؤسّسات جرّاء الاختيارات السياسيّة من جهة وجرّاء البيئة الصحراويّة الحارّة غير المشجّعة على الإنتاج من أصله من جهة أخرى. ويكون مفيدا، في هذا السياق بالذات، أن نفكّر في بناء مقارنة أنثروبولوجية بين البداوة اللّيبيّة والبداوة الخليجيّة. فهذه الأخيرة مستفيدة شديدة الاستفادة من الريع البترولي ؛ وهي مندرجة في إطار المنطق الزبوني، أي مقايضة الولاء بالمنافع الماديّة وحريصة على علاقة وطيدة مع نُظُم الحكم المختلفة، ولكنّها تتمتّع بقدرة واضحة على فرض نوع من الاستقلاليّة ومن الحصانة الاجتماعية لا تسمحان لها بالتورّط

في القمع السياسي وفي الصّراعات بين الحكام ومعارضيهم. ولعلّ ذلك ما نسمّيه بالبداوة الذكية والبراغماتية التي تجيد اصطياد المنافع والمكاسب وضمان رضا الحاكم دون التورّط في تأليب القبائل على بعضها البعض وفي عملية إهدار الدّم والعنف السياسي مثلما رأينا ذلك في ليبيا.

وعود على بدء، يمكن أن نقول إنّه من علامات وهن الجهد والإنتاج ما نراه من عدم تقديس المؤسّسات وضعف الحافزيّة للعمل والدافعيّة للإنتاج وترهّل الهياكل الحكومية وعدم انتظام الدوام الإداري وارتفاع معدّلات التغيّب عن العمل لأسباب هي، غالبا، واهية وضعف الرّقابة على المؤسّسة وعلى عمليّة الإنتاج وغياب المتابعة اليوميّة وخاصّة الصيانة كما أشرنا إلى ذلك سابقا، وعدم الاهتمام بتلف أو إتلاف دواليب الإنتاج وبضرورة مراكمة الخبرات والتجارب المهنيّة والإنتاجية.[45]

45- إنّ الأمر لا يتعلّق هنا بمجرّد سماع وإنّما بملاحظات يوميّة سجلناها على امتداد سنوات.

فمثل هذه الحزمة من العلامات والأمارات تساعدنا، نظريّا وميدانيّا، على الافتراض بأنّنا إزاء بيئة واهنة لا تبدي كبير حماس للإنتاج وتوقير الجهد والعمل؛ وهي لا تساعد على بلورة شخصيّة قاعديّة منتجة على الرّغم من أنّ اللّيبيين عرفوا شظف العيش وصعوبة الحياة وجاهدوا حماية للوطن ولمورد الرّزق[46] وحفروا الصّخر من أجل ضمان القوت اليومي. ولكن الريع البترولي الميسور دمّر كلّ هذا الجهاد من أجل القوت وساعد على الاسترخاء الريعي والإنتاجي relaxation comfort المتأتّي أساسا من الاقتصاد غير المنتج ومن المردود الغزير الذي توفره الطاقة النابعة من باطن الأرض ومن الإسراف في الاستهلاك. ولذلك، إذا ما تيسّرت ظروف إعادة بناء النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتعليمي، فإنّه من أوكد الواجبات إعادة الاعتبار لقيمة الجهد والعمل باعتبارها من أهم الأولويّات في

46 - أحمد زارم، مذكّرات أحمد زارم، الدار العربية للكتاب، تونس – طرابلس، 1979، ص 47.

المرحلة القادمة مرحلة إعادة البناء. وإذا ما تمكّنت ليبيا من بناء شخصيّة قاعديّة منتجة[47]، فإنّ ذلك يُعدّ واحدا من أهمّ مكاسب القرن الواحد والعشرين و«ثورة ثقافية» حقيقية قادرة على تغيير الواقع نحو الأفضل. فمن شروط الشخصية الإيجابية أن تكون مبَادرة و أن تكون مُراكمَة في الآن نفسه.

وأمّا الخاصيّة السابعة، فهي تتمثّل في أنّ الشخصيّة القاعدية البدويّة غير مراكمة وغير حريصة على حسن توظيف التجارب وتثمير الخبرات لاعتبارات عديدة Non cumulative personality سيأتي شرحها لاحقا.

فالشخصيّة البدويّة ليست ميّالة، إجمالا، إلى تحمّل إكراهات المجتمع وضغوط المدن والحواضر والتزامات المؤسّسات وإلزامات القوانين وضوابط الحياة العصريّة ؛ فهي بحكم تركيبتها النفسيّة

47 -*Moncef Ouannès, Le Roi et le rebelle : Révolte et reconstruction en Libye*, Paris, Karthala, 2014.

حَلُومةٌ وشاعريّةٌ وتأمليّةٌ ومقبلةٌ على لذّة التّرحال بغضّ النّظر إن كان ذلك زمانيّا ومكانيّا، رمزيّا وفعليّا. فالمترحّل في الزمان والمكان، في الواقع أو في الرّمز ليس معنيّا بأن يُبْقِي أثرا بعده وأن يكتسب خبرات غيره وأن ينقلها من خلال آليّات التّفاعل إلى الأجيال الجديدة. فبنية هذه الشخصيّة القاعديّة من النّاحية النفسيّة والذهنية تشجّع القطيعة بين الأجيال وعدم تراكم الخبرات في صلب المجتمع.

ولذلك تتكرّس بين الأجيال علاقة غير تفاعليّة أي تتوفّر على روح المحاورة وتبادل الآراء وعلى انتقال سَلِس للأفكار بين الفئات الاجتماعيّة وعلى دوران الخبرات وعلى تفاعليّة تشاركيّة تفضي بالضرورة إلى إنتاج مشترك يتحوّل بفعل الزّمن إلى آثار ومعطيات متراكمة يتمّ استعمالها وتوظيفها عند الحاجة وحسب متطلّبات السياق.

ولمزيد توضيح هذه الفكرة – صعبة القبول – فإنّه يمكن أن نشير إلى ظاهرة إداريّة محضة. فقد عاشت

«الدولة» اللّيبيّة على امتداد عقود أربعة دون تراكم وثائقي ودون أرشيفات منظّمة (تسمّى في ليبيا المحفوظات) ومحيّنة وقابلة للاستغلال السّريع، بل إنّ جزءًا مهمّا من الأرشيفات التاريخيّة تعرّض هو الآخر للتّلف. إنّ هذه الظاهرة الإداريّة لا تعكس بالضرورة موقفا سياسيا مُبَيتًّا، وإنّما هي تعبير عن شخصيّة مترحّلة على الرّغم من ضوابط الإدارة وضرورة الإبقاء على الآثار والمخلّفات والمكتسبات التي تراكمها الأجيال وتبني انطلاقا منها واعتمادا عليها. وهي تعبّر كذلك عن شخصيّة تعتمد أساسا الرّواية الشفويّة وتكره التّوثيق المكتوب. ولعلّ هذا ما ساعد على توارث الأجيال للصراعات والأحقاد حتى وإن لم يعايشوها. فمن المسائل الاجتماعيّة غير المدروسة في ليبيا هي مسألة الرّواية الشفويّة ودورها في «تدمير» العلاقات القبليّة والروابط الاجتماعيّة وفي إعادة إنتاج جغرافيا الأحقاد. فالذّاكرة الدّامية Bloody memory أدّت دورا سلبيّا في مرحلة ما بعد الانتفاضة حين عبّأت كلّ تراث الأحقاد التاريخيّة

بين القبائل والجهات قصد إذكاء الصّراع وإشعال الاقتتال.

فاللاّفت للانتباه هو أن تعمد بعض القبائل إلى حفر شرائح الذّاكرة التاريخية وأن تحيى بعض مفاصلها الدامية وأن تستثمرها في الصّراع (مصراتة- ورفلة، الزنتان-مشاشية، مصراتة-تاورغاء، الزنتان- جادو، زوارة-الجميل...). فمثل هذا الإحياء المتعمّد للذاكرة المتوحّشة يستهدف تدمير فرص العيش المشترك ونسف الرّاهن والمستقبل بدليل أن الذّاكرة الدامية أعاقت إلى حدّ كبير التحوّل السياسي والديمقراطي في ليبيا الرّاهنة

ولمزيد تأكيد هذا الإصرار على تدمير الذّاكرة المكتوبة، فقد روى لي شهود ثقات من مثقّفي ليبيا، في السّياق ذاته، كيف عمد موظّفون في سنتي 1970 و1971 إلى رمي وثائق إدارتهم في الشارع[48]، وكيف تمّ تأويل

---

48 - يمكن أن نشير، على سبيل المثال، إلى مقابلة مع القصّاص (م.م) في طرابلس بتاريخ 2000/04/27.

«الثورة الثقافية» المعلنة في 15 أفريل 1973 على أنّها ترخيص بإعدام الوثائق والأرشيفات لأنّها لا تتلاءم مع خصائص المرحلة الثورية ولأنّه لا يوجد مبرّر إداري ومؤسّساتي للإبقاء عليها تعبيرا بذلك عن بنية ذهنيّة ونفسيّة[49] ترفض التقيّد والقيد ولا تقدّس المؤسّسة، ولا تعمل على احترام قداسة الذاكرة الجماعية. كما لا يجوز من باب الموضوعية إغفال عملية إحراق السجل العقاري في ثمانينيات القرن العشرين التي يقف وراءها عدد من المستفيدين من المرحلة السابقة الذين راكموا أموالا وثروات اعتمادا على استغلال النفوذ والمحاباة ورأوا في تدمير وثائق الملكية العقارية قضاء على هوية المالكين الأصليين. ولكن اللاّفت للانتباه أنّ أسلوب حَرْقِ الوثائق استمرّ حتى بعد الانتفاضة، حيث تمّ تدمير أرشيفات المركز

49 ـ على إثر الغارة الجوية الأمريكية على ثكنة باب العزيزية في 15 أفريل من سنة 1986، قام بعض الطلبة الثوريين بإحراق المناهج في جامعتي طرابلس وبنغازي وتكسير جميع الآلات الموسيقية باعتبارها أدوات غربية. وقد أول المختصون هذا الفعل على أنه إمعان في الانغلاق وهدم للذاكرة الموسيقية أي الذاكرة المكتوبة.

الوطني للتوثيق الجماهيري والمتحف الجماهيري والسجل القومي والـمركز العالـمي للكتـاب الأخضــــر. ولا يفوتنا في هذا السّياق بالذّات أن نشير إلى الاستهداف الانتقائي والمُسَيّس للذّاكرة المكتوبة. فقد تمّ، عمدا، تدمير أرشيفات شركة «المدار» للاتّصالات الهاتفيّة والهواتف الجوّالة بالكامل في حين تمّ الحفاظ على مبنى الرقم الوطني الذي يقع على بعد أمتار قليلة من المبنى الأوّل لأنّه يتضمّن كلّ المعلومات عن المواطنين اللّيبيين؛ وهي معلومات قابلة للاستغلال السياسي. كما تمّ إحراق جزء واسع من السجلّ العقاري لإخفاء حجج من تمّت مصادرة أملاكهم من مسؤولي النّظام السّابق مثلما حصل في منتصف الثمانينيات.

كما تمّ، في السّياق ذاته، نهب محفوظات المخابرات اللّيبيّة والسيطرة عليها من أجل الحصول على قوائم المسؤولين العسكريين والأمنيين السابقين...

ولكن هذه البدونة المؤسّساتية تفضي -إراديا أو لاإراديا- إلى إهدار الذّاكرة الجماعيّة وإلى إخضاع التاريخ للمراقبة وإلى إضاعة المعلومة وجعلها مفقودة أو غير وظيفية، في حين أنّ واحدا من عناصر قوّة البلدان الصناعيّة المتقدّمة هو توفّر المعلومة المحيّنة والسريعة لحظة طلبها. صحيح أنّه تمّ الاهتمام بتاريخ الجهاد اللّيبي وإبراز أعلامه ومراحله ونتائجه، ولكن ذلك لا يمنع القول إنّ أجزاء واسعة من الذاكرة الوطنيّة اللّيبيّة تعرّضت للتّلف على أهميّة هذا التراث الثقافي[50]، المادّي واللاّمادي، وإن كنّا لا نريد الدّخول في جدل التأويلات باعتبارها بحرا متلاطما من القراءات[51] التي تتحزّب لهذا المعسكر الإيديولوجي أو ذاك. فقد حرصت هذه الدراسة، منذ البدء، على أن تلتزم بشروط القراءة المنهجيّة

50- Pierre Nora, *Les lieux de la mémoire*, Paris, Editions Gallimard,1998.

51 - Paul Ricœur, *Le conflit des interprétations, essais d'herméneutique*, Paris, Edition du Seuil,1969.

والتأويليّة دون ارتباط بأيّة اعتبارات سياسيّة أو ذاتيّة حرصا على الموضوعيّة من جهة وحرصا أكثر على احترام خصوصيّات المجتمع اللّيبي وعلى قراءته بدقّة في مرحلة استثنائيّة وحسّاسة من تاريخه الرّاهن من جهة أخرى.

القبيلة والتحديث في ليبيا

يمكن القول إنّه ثمّة نوعان من التحديث : واحد سريع وسطحي والثاني عميق واستراتيجي. فالأوّل يعنى أساسا تحديثا ماديا أي توفير متطلبات البنية التحتيّة والتجهيزات اللاّزمة، في حين يعني الثاني تغييرا عميقا في البنيات الذهنيّة والثقافيّة والاجتماعية والاقتصادية والسياسية من أجل إكسابها النجاعة والقدرة على الفعل الإيجابي.

فالفرضيّة التي نكرّس لها جزءا من الاهتمام المعرفي ترجّح أن التحديث المادي (بنيات تحتيّة ومستشفيات وجامعات وطرق ومعامل)، مهما بلغت قوته وأهمية

تمويله لا يفضي ضرورة إلى تفكيك المجتمع القبلي والتنظيم الاجتماعي التقليدي وإلى اندثار أواصر البداوة وتلاشي ثقافة العصبيّة[52] ومنطق الولاء مقابل الهبة. فالتحديث المادّي السريع لا يفكّك كذلك روابط النّسب والمصاهرة والزبونيّة والولاء العصبوي. ولذلك تتعايش القبيلة مع التحديث المادّي والسريع وتتأقلم معه وتستمرّ في قوتها ونفوذها باحثة بطبيعة الحال عن مواطن نفعها دون الاضطرار لتقديم تنازلات.

فإذا ما ازددنا تعمّقا في التحليل، فإنّنا نستنتج أنّ هذا التحديث لا يؤدّي في النهاية إلى التحديث الذهني والثقافي والاجتماعي، ذلك أنّ العلاقة بينهما ليست بالضرورة تفاعلية وترابطيّة، بدليل أنّ الريع البترولي لم يحدّث منظومة العمل والإنتاج والجهد ولم يغيّر الزبونيّة والتواكليّة القائمتين.

52- عبد الرحمان بن خلدون، المقدّمة، دار العودة، بيروت، 1981.

فعلى النّقيض من ذلك، يحتاج التحديث العميق إلى صهر كلّ البنيات ما قبل حداثيّة وفي مقدّمتها البنيات القبليّة والتقليدية والعصبوية والزبونيّة في مصهر المجتمع الشامل.

ولعلّ ذلك ما يشجّعنا على بناء الفرضيّة الأخرى التي ترجّح أنّ القبليّة يمكن أن تتلاءم مع التحديث المادّي وأن تتقبله، اقتناعا وإكراها، لأنّه لا يفكّك بنيتها العميقة ولا «يدمّر» منطقها الداخلي ولا حقل منافعها وغنائمها. وأمّا التحديث العميق، فيقتضي تغييرا جذريا في البنيات العميقة ودولة قوية ومنظّمات ومؤسّسات متينة؛ وهو ما لا يتلاءم مع النّظام الاجتماعي التقليدي والحياة القبليّة المبنيين على العصبيّة. فالقبيلة لا يمكن أن تكون بفعل آلية اشتغالها، فاعلا إيجابيا في عملية تحقيق التحديث العميق الذي ينتظره المجتمع اللّيبي منذ لحظة الاستقلال سنة 1951. فلا يمكن أن تقبل القبيلة تحديث النظام الاجتماعي والثقافي والقيمي بسهولة و مراجعته من الجذور..

وللتدليل على أنّ التحديث الثقافي العميق لم يكن ناجعا على الرّغم من كلّ «الاختيارات الثوريّة» التي سادت العقود الأربعة الأخيرة هو أنّ المجتمع اللّيبي بقي محافظا اجتماعيّا ولم تتغيّر وضعيّة المرأة فيه التي بقيت سلبيّة وقريبة من الحالة الدّونيّة[53]. ويكاد يكون حضورها الفعلي هزيلا قياسا بوضعيّات عربيّة أخرى. كما يمكن أن نشير إلى واقع الشّباب الذي يعيش إقصاءً وتهميشا وبطالة (تفوق نسبتها 33 %) وصعوبات عديدة في مجال الحياة الجنسيّة وبناء العلاقات مع الجنس الآخر وخاصة إثبات الذّات سياسيّا واجتماعيّا. فالبداوة الذهنيّة أشدّ وطأة وتأثيرا في سلوك الأفراد من البداوة وفق معناها المادّي، مثلما نرى ذلك في المجتمع اللّيبي الرّاهن.

وحينما تطالب القبائل، على استحياء، ببعض حقوقها في التحديث المادّي، فإنّها تقبل أن يكون

53 - يكفي أن نتعمّق في أمّهات كتب التاريخ اللّيبي حتّى نلمس هذا الإقصاء للمرأة وعدم الاعتراف بدورها.

ذلك، وفق منطق الولاء مقابل الهبة. وهي لا ترفع الحقّ في التحديث إلى منزلة الحقّ المكتسب الذي يندرج في إطار المواطنة والمشاركة. فالآداء السياسي وزبونية القبيلة أدّيا، في النهاية، إلى تشكّل بيئة طاردة للتحديث الاجتماعي العميق ولعملية إعادة بناء الإنسان اللّيبي في الحاضر والمستقبل.

ولعلّ ذلك ما أفضى إلى تشكّل ما نسمّيه بالتحديث المأزوم أو المعطّل الذي عاشته مجتمعات عربيّة عديدة وفي مقدّمتها ليبيا. فالتعطّل لا يكمن فقط فيما هو سياسي أو اجتماعي – فذلك حاصل منذ فترة طويلة – وإنّما في مشكلة أخرى أشدّ صعوبة وتعقيدا يمكن أن نسمّيها بتمثّل الحداثة فلسفة ومعيشا.

إن الحداثة تعني منظومة فكريّة متكاملة تفكّك مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينيّة وتحدّد هويّتها بشكل منظّم وواضح الأمر الذي يعطيها طابعا بنيويّا، في حين أنّ منطق الحقول على حدّ تعبير عالم الاجتماع بورديو ينبني

على التداخل بل قل الاندغام بين ما هو سياسي واجتماعي، بين ما هو سياسي وديني، وبين ما هو سياسي واقتصادي. فمثل هذه التمثّلات المبنية على الاندغام الكلّي بين الحاكم وبقيّة المجالات والحقول المختلفة الأخرى ساهمت في حالة الانسداد الشاملة. ولذلك تعطّلت الحداثة وتعطّل معها التحديث، لأنّنا إزاء مشهد يشبه كثيرا مشهد العين الجارية التي تروي كلّ الجداول المحيطة بها. فإذا ما نضبت العين نضبت معها كلّ السّواقي الموصلة للماء.

شخصية قابلة لإعادة البناء

إنّ هذه الدّراسة تعتبر نفسها مجرّد محاولة في الفهم عسى أن تتلوها دراسات أخرى أكثر جرأة وعلميّة. فعلى الرّغم من هذه الحزمة المثيرة للجدل من الصعوبات، فإنّ هذه الشخصيّة تمتلك خاصيّة أساسيّة يمكن الرّهان عليها في الرّاهن وفي المستقبل. إنّها تملك مواد أوّليّة خام تعطيها عبقريّة التكيّف والتّحول؛ وهذه

الخاصيّة الثامنة مشتركة مع الشخصيّة القاعديّة التونسيّة[54] Adaptive personality. فإذا ما توفّر برنامج وطني شامل لإعادة بناء المجتمع اللّيبي بقيادة نخبة متبصّرة تملك فلسفة الإرادة كما يقول الفيلسوف «مارلو بونتي» وتعمل وفق مسار شامل ومتكامل، فإنّ هذه الشخصيّة قادرة على تجاوز معوّقاتها وعلى أن تكون عنصر بناء مستقبلي. فقد توحي الخصائص السابقة بمدلولات سلبيّة ولكنّها لا تمنع النهوض ومعاودة البناء من جديد طالما أنّ ذلك، في تقديرنا، ممكن. إنه بالامكان كسب معركة إعادة بناء العقل اللّيبي في العقود القليلة القادمة.

فلا يجب أن ننسى، في هذا السّياق تحديدا أنّ مختلف النّظم التي تعاقبت على حكم ليبيا منذ 1911 إلى غاية 2011 وخاصّة الاحتلال الإيطالي استعملت أقدارا مختلفة من العنف لإخضاع الشعب لسلطانها واستخدمت كذلك القبائل لتدعيم نفوذها الأمر الذي

54- المنصف ونّاس، الشخصيّة التونسيّة، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2010.

طبع الشخصيّة القاعديّة بصفات العنفيّة والميل للغلبة وقهر الخصم وتغليب منطق الاستئثار. ولذلك لم يحصل تحديث عميق في المجتمع اللّيبي مثلما يؤكّده الواقع الميداني.

ولهذا يجوز لنا القول إنّ هذا النصّ محاولة، دون إدّعاء، من أجل المساهمة في إثراء النقاش خاصة وأنّ ليبيا تعيش مراجعات ثقافية[55] حول الهويّة واللّغة والثقافة الأمازيغية والعلاقة بين العروبة والإسلام وفلسفة الثروة ونظام الفدرالية ؛ وهي تحتاج إلى إرساء تقاليد الحوار حتّى تفضي هذه المراجعات إلى بناء حالة فكرية توافقية تساعد على إعداد المستقبل ونجاح المرحلة الانتقالية التي تحتاج فيما تحتاج كذلك إلى رؤية من الخارج وإلى قراءة موضوعية تساعد على تجاوز النقائص؛ وهي، مثلما هو ملاحظٌ عديدةٌ. كما يمكن أن تأخذ هذه المراجعات بعين

55 - محمود أبو صوة، جدلية المجال والهوية، مدخل لتاريخ ليبيا العام، دار الروّاد، طرابلس 2012، 663 ص.

الاعتبار حجم الانشطارات والشروخ والتوتّرات التي تخترق تاريخ المجتمع اللّيبي المعاصر والرّاهن منتجة بذلك ما أسميناه بالذّاكرة الدّامية. فالقول إنّ المجتمع اللّيبي قادر على أن يتجاوز بسهولة الانشطارات والشروخ قول متفائل ويحتاج إلى إثبات خاصّة إذا ما اتّفقنا على أنّ التاريخ اللّيبي تاريخ قطيعة وتوتّر الأمر الذي يدفع بجديّة من أجل البحث في كيفيّات التّجاوز.

فعلى الرّغم من المآسي التي عصفت بالمجتمع اللّيبي وعلى الرّغم من أنّ النّظم المتعاقبة لم تتوقّف في إنتاج الآليّات التسييريّة المتلائمة مع الخصائص الذهنيّة والثّقافيّة للشعب اللّيبي، فإنّ معاودة البناء ممكنة وذلك بغية إعادة تنظيم الحياة السياسيةوتوزيع الثّروة وضمان المشاركة والحقوق الثّقافيّة بالنسبة إلى الأمازيغ والطوارق والتبو.

الخاتمة

«مَنْ لاَ يُحِـبُّ صُعُودَ الجِبالْ يَعِشْ أَبَدَ
الدَّهْـرِ بَيْنَ الحُفَرِ»

أبو القاسم الشابي

«إذَا الشَّعبُ يومًا أرادَ الحَياةَ
فَلاَ بُدّ أنْ يَستَجيبَ القَدَرُ»

أبو القاسم الشابي

إنّ ظاهرة البداوة ليست ظاهرة مادية فقط بل هي ثقافة وبنية ذهنيّة ومجموعة تمثّلات للواقع والحياة والوجود والعمل والإنتاج والمقدّس. ولكن ما يتوجّب أن نشير إليه، من النّاحية المنهجيّة، هو أنّ هذه الثقافة، بغضّ النّظر عن درجة انتشارها في صُلب المجتمع اللّيبي تتحوّل إلى ممارسات اجتماعية في المعيش اليومي للأفراد وتصبح بذلك حياة شبه مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد. فالبداوة نظام من الأفكار والتمثلات ومن القيم تتّسم بقدر من الإلزام والضغط وتتحوّل إلى أداة رقابة وإكراه اجتماعيين. ولعلّ هذا ما يفسّر تجانس المجتمعات البدوية، ثقافيّا وذهنيا وسلوكيا[56]، وضعف ظاهرة التّمرّد على الضبط الاجتماعي وتعايش الأجيال دون حالات صدام ظاهرة.

---

56 - لوجلي صالح الزوي، البادية اللّيبيّة، جامعة ڨاريونس، 1998، ص 96-97.

فللفرد أن يختار ما يشاء من عناصر الحضارة وأن يتزوّد بما يريد من التكنولوجيات الجديدة وأن ينتقى ما طاب له من السكن والمعمار والطبخ واللّباس و"ماركات" السيارات الفارهة، ولكن ذلك لا يولّد بالضرورة تلاؤما مع البنية الذّهنية والثقافيّة لهذه المجموعة أو تلك. فليس ضرورة أن يحصل هذا التواءم والتّماهي، ذلك أنّ الثقافة أشدّ صلابة وعنادا ومقاومة أكثر ممّا توقّع الأنتروبولوجيون. ولكنّ العناد البدوي لا يجب أن يمنع عمليّة إعادة بناء النظام الثقافي والذهني والاجتماعي والقيمي؛ ففي ذلك يكمن جزء من الحلّ.

لقد استبسلت الشخصيّة القاعدية اللّيبية في مواجهة المجاعات والأوبئة والحروب على امتداد قرون من الزمن وقاومت الفقر في عهود طويلة وواجهت بكل شجاعة الاحتلال وخاصّة القمع الفاشستي الرهيب وفلقت الأرض بحثا عن الحَبِّ لأكله في أيّام الجوع وهاجرت إلى أصقاع الدنيا من أجل الرّزق

وضمان سبل الحياة. ولكنّه حينما تزدهر الأوضاع الاقتصاديّة تنتج هذه الشخصيّة القاعدية تاجرا ناجحا، قد لا يجيد المحاورة السياسيّة، ولكنّه يجيد، على النقيض من ذلك، المقايضة أي فنّ التفاوض من أجل إنجاز الصفقة وإبرامها أولا والدفاع عن هامش الربح والمكسب ثانيا بكلّ ما يقتضيه ذلك من واقعيّة وبراجماتية. ولعلّ هذا ما يُدلّل على عبقرية خيال وتكيّف.

فالشعوب التي لا تملك خيالا في مواجهة أزماتها تخشى أن تؤبّد أمدها وأن تطيل عمر تخبّطها مثلما يحدث الآن في المنطقة العربيّة، وخاصة في بلدان «الربيع العربي».

إن النهضة التي خرجت من رحمها أوروبا العملاقة كانت بالأساس فكرة وخيالا. فقد بات ضروريا العمل، في حدود ما لاحظنا وناقشنا وفهمنا، على إعادة بناء هذه الشخصيّة القاعديّة اعتمادا على مختلف آليّات التنشئة الاجتماعيّة والسياسيّة، أي الأسرة والمدرسة

والتلفزة والجامعة والبيئة الشّارعية والأحزاب والجمعيّات من أجل مواكبة العصر وتجاوز ضغط الهياكل الاجتماعية الأوّليّة وفي مقدّمتها القبيلة. كما يمكن أن تركّز التنشئة الاجتماعية والسياسية الجديدة على خلق شخصيّة قاعديّة تمنح الوطن ولاءها الكامل وتستبسل في العمل وترفع الإنتاج إلى مرتبة المقدّس وتقطع نهائيّا مع قيم الثأر وإهدار الدّم والمحسوبيّة والزبونية من أجل قيم مدنية جديدة وصولا إلى مرحلة بناء الشخصيّة المنتجة. إنّ الرّأي القائل بأنّ مفهوم الشخصية القاعدية أو الأساسية مفهوم أنتجته المدرسة الأنجلوسكسونية وتمّ تجاوزه لأنّ عمره البيولوجي والعلمي يعود إلى الخمسينيات من القرن العشرين، رأي غير دقيق من الناحية العلميّة. فالشخصيّة القاعديّة ظاهرة قائمة وموجودة ولا يمكن إنكارها. ويمكن القول إنّها ظاهرة متوسّطة ونسبيّة. إنّ الشعوب والمجتمعات تملك شخصيّة مشتركة ومتشابهة ولكن كذلك شخصيّات محلية وخصوصيّة يمكن أن تكون مدخلا

لقراءة علمية. ولعلّ ذلك ما يشجّعنا على القول إنّ مفهوم الشخصية القاعدية، على النقيض ممّا يكتب، لا يزال يتمتّع براهنية ويمكن أن تستخدمه من أجل مزيد التحليل والفهم العلميين خاصة وأنّ ليبيا بدأت تدخل مرحلة ما بعد البترول.

فمفهوم الشّخصيّة القاعدية العربيّة قادر خاصة على أن يجيبنا على أسئلة مركزية ومهمّة تترتّب كالتالي :

- لماذا تداول على السّلطة في المنطقة العربيّة حكّام أشرار في غالبيتهم ؟

- ولماذا كل هذه الإخفاقات الواسعة التي شملت أغلب المجالات والقطاعات ؟

- و أخيرا ألم تكن الشخصية القاعدية حاضنة للاستبداد العربي ؟

بيبليوغرافيا انتقائيّة

المصادر

- ابن خلدون (عبد الرحمان)، المقدمة، دار العودة، بيروت، 1981.

- الأنصاري (أحمد النائب)، نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تحقيق وتقديم علي مصطفى المصراطي، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1963.

المراجع المختصة

- أبو صوة (محمود أحمد)، جدلية المجال والهوية، مدخل لتاريخ ليبيا العام، دار الروّاد، طرابلس، 2012.

- إبراهيم (نجيب)، وآخرون، قيمنا الاجتماعية وأثرها في تكوين الشخصيّة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962.

- روسّي (إتّوري)، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة خليفة محمد التليّسي، الدار العربيّة للكتاب، تونس – طرابلس 1991.

- بركات (حليم)، المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984.

- بن سلامة (البشير)، الشخصيّة التونسية: خصائصها ومكوّناتها، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر، تونس، 1974.

- بن موسى (تيسير)، المجتمع العربي اللّيبي في العهد العثماني، الدار العربيّة للكتاب، تونس - طرابلس 1988.

- التير (مصطفى عمر)، اتّجاهات التّحضر في المجتمع العربي، الدار البيضاء 1995.

- حمّودي (عبد الله)، الشيخ والمريد، النسق الثقافي للسّلطة في المجتمعات العربيّة، دار توبقال، الرباط، 1999.

- خدّوري (مجيد)، ليبيا الحديثة، دراسة في تطوّرها السياسي، بيروت، دار الثقافة، 1963.

- الخوري (فؤاد إسحاق)، الذهنية العربيّة : العنف سيّد الأحكام، بيروت، دار السّاقي، 1993.

- الزاوي (الطاهر أحمد)، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، دار الفتح ودار التراث العربي، بيروت 1972.

-زايد (أحمد)، سيكولوجية العلاقات الاجتماعيّة بين الجماعات، قضايا في الهويّة الاجتماعية وتصنيف الذّات، عالم المعرفة، عدد 326، أفريل 2006.

- الزوي (لوجلي صالح)، البادية اللّيبيّة، الحاضر والمستقبل، جامعة قاريونس بنغازي 1998.

- السّاعاتي (سامية حسن)، الثقافة والشخصيّة، بحث في علم اجتماع الثقافة، بيروت 1983.

- السورطي (يزيد)، السلطويّة في التربية العربية، سلسلة عالم المعرفة، عدد 362، 2009.

- الطاهر (عبد الجليل)، المجتمع اللّيبي، دراسات اجتماعية وأنتروبولوجية، المكتبة العصريّة، بيروت 1969.

- القويري (عبد الله)، معنى كيان،مطابع دار لبنان، بيروت، [دون تاريخ].

- المغيربي (محمد زاهي)، المجتمع المدني والتحوّل الديمقراطي في ليبيا، دار الأمين للنشر، القاهرة 1995.

- هلال (جميل)، دراسة في الواقع اللّيبي، طرابلس، مكتبة الفكر، 1969.

- الهمّالي (عبد الله عامر)، التحديث الاجتماعي، الدار الجماهيريّة للنّشر، طرابلس 1986.

- الوردي (علي)، شخصيّة الفرد العراقي، دار العاني للنشر، بغداد 1951.

- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة العاني، بغداد، 1965.

- صوان (يوسف)، ليبيا الثورة وتحديات بناء الدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2013.

- عميش (ابراهيم)، الدولة والمجتمع السياسي في ليبيا، دار برنيق للنشر الاسكندرية 2012.

– Ahmida (Ali), *The making of modern Libia*, State University of New York Press, 1994.

- ________, Forgotten voices, *Power and Agency, in Colonial and postcolonial Libya*, London, Rutledge Taylor and Francis Group, 2005.

- De Certeau (Michel), *La culture au pluriel*, Paris, éditions Bourgeois, 1977.

- De Singly (François), *Les uns et les autres, Quand l'individualisme crée du lien*, Armand Colin, 2003.

- Djaït (Hichem), *La personnalité et le devenir arabo-islamiques*, Paris, édition du Seuil, 1977.

- Dobry (Maurice), *Sociologie et crises politiques*, P.I.N.S.P., Paris, 1996.

- Dubar (Claude), *La crise des identités*, Paris, P.U.F., 2000.

- Dubar (Claude), *La socialisation : Construction des identités sociales et professionnelles*,Paris, Armand Colin, 1998.

- Dufrenne (Mikel), *La personnalité de base. Un concept sociologique*, Paris, P.U.F., 1953.

- Durkheim (Emile), *De la division du travail social,* Paris, P.U.F., « Quadrige », 2004.

-____________________, Le suicide : *Etude de sociologie*, Paris, P.U.F., 1966.

- Féraud (L. Charles), *Annales tripolitaines*, Librairie Tournier, Tunis, Librairie Vuibert, Paris, 1927.

- Fillause (Jean Claude), *La personnalité*, Paris, P.U.F., 1986.

- Gofman (Erving), *La mise en scène de la vie, la représentation de soi*, Minuit, 1976.

-________________, *Les rites d'interaction, Minuit* 1974.

- Guéguen (Nicolas), *De la manipulation et de la soumission,* Paris, Dunod, 2002.

- Hirschman (Albert O.), *Le passioni e gli interessi*, « Saggi Universale Economica Feltrinelli», Feltrinelli, Roma, 2001.

- Kaufman (J. Claude), *L'entretien compréhensif*, Paris, Nathan 1996.

-______________, *Pour une sociologie de l'individu*, Nathan 2001.

- Lahire (Bernard), *L'homme au pluriel,* Nathan 1998.

- Martucelli (Daniel), *Grammaire de l'individu*, Paris, Gallimard, 2002.

- Muchielli (Alex), *Les mentalités, Compréhension et analyse*, E.S.F., 1984.

- Paugam (Serge), *Le lien social*, Paris, P.U.F., 2008.

- Pervin, John, *La personnalité : De la théorie à la recherche*, Paris, De boeck, 2011.

- Picot (Marc), *La colonisation : Rupture ou parenthèse ? « Racines du présent »*, Paris, l'Harmattan, 1987.

- Ouannès (Moncef), *Militaires, élites et modernisation dans la Libye contemporaine, Paris,* L'Harmattan, 2009.

- ______________, *Le Roi et le rebelle*, Paris, 2014.

كشّاف القبائل والجهات

فهرس الموضوعات

الشّخصيّة اللّيبية

ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة

إنّ الأزمة العميقة التي عاشها المجتمع اللّيبي، بكل جوارحه، في الفترة الفاصلة بين فيفري وأكتوبر 2011 أفضت، عمليا، على الرّغم من تباين القراءات، إلى تفكيك توازن المجتمع وإلى تدمير البنيات الاجتماعية والقبلية وخاصّة إلى استحضار تاريخ مسكون بالتوتّرات والخلافات القبلية والجهويّة وإلى إعادة إحياء جغرافيا الأحقاد والصّراعات بين الفئات والجهات. فالمفارقة الأنثروبولوجية هي أنّ هذه الأزمة أعادت إنتاج ذاكرة دامية وتاريخ مأزوم وتوظيفهما في إدارة الصّراع، في حين أنّنا اعتقدنا، لعقود خلت، أنّ هذا التاريخ المتوتّر انصهر تماما في النّسيج الذّهني والثقافي والاجتماعي والقبلي للمجتمع اللّيبي الأمر الذي يفسّر مستويات العنف السائدة حاليّا. فالذّاكرة الدامية أعاقت إلى حدّ كبير التحوّل السياسي والديمقراطي.

ولذلك لا يكاد يختلف اثنان في أنّ مبحث الشخصيّة القاعديّة يحتاج مخابر بحث بحالها. ولكن على الرّغم من ذلك، قمنا بهذه التّجربة حتّى نستحثّ الهمم ونحرّك السواكن ونرمي أفكارا في هذه البركة العربيّة الرّاكدة ونخلق بيئة للحوار.

المنصف ونّاس

باحث في جامعة تونس يحاول، منذ سنوات، أن يفهم ديناميّات التغيّر السياسي والاجتماعي في المغرب العربي وخاصة في تونس و ليبيا .

ISBN : 978 - 9938 - 864 - 15 - 1

9 789938 864151

www.mediterraneanpub.com